د. أحمد خالد توفيق



ضحكات كئيبة

سبارك للنشر والتوزيع

مقالات ساخرة

ضحكات كئيبة

ضحكات كئيبة

●

مقالات ساخرة

●

●

إشراف
م . سند راشد
د . تامر إبراهيم

●

تصميم الغلاف
أحمد مراد

●

الإخراج الفني
م . أحمد محمد أحمد

●

بقلم
د . أحمد خالد توفيق

●

سبارك للنشر والتوزيع

●

●

رقم الإيداع / 3267/2012



www.spark-books.com

مقالات ساخرة

ضحكات كئيبة

د . أحمد خالد توفيق



إنه التضخم !

تمكن محمود عن طريق الامتناع عن التدخين وركوب سيارات الأجرة ومشاهدة السينما وأكل الشطائر خارج البيت والزواج.. تمكن من إدخار بضعة آلاف في المصرف..

كان مبلغًا صغيرًا لكنه كذلك كبير في آن واحد. وقد بدأ يشعر بالرضا عن نفسه وعن مستقبله. حتى أنه بدأ يفكر في إمكانية الزواج.. لم لا؟.. إنه في الخامسة والثلاثين وشكله غير منفر..

كان راضيًا كما قلت حتى جاء أحد العارفين ببواطن الأمور، ليقول له في ثقة:

- "التضخم!"

ماذا عن التضخم؟..

- "اليوم معك ألف جنيه.. بعد عامين تكون القيمة الشرائية لهذا المال قريبة من مائتي جنيه.. بعد عامين آخرين ستكون قيمة المال غير كافية لشراء قطعة بسكويت!"

هكذا أصابه الرعب.. مثلما يشعر من ينزف بأن الحياة تتسرب منه، لم يعد قادرًا على الحياة وهو يدرك أنه ينزف مالاً في كل ثانية تمر..

- "والعمل؟"

- "لا يوجد حل سوى العقارات.. كل يوم يمر يزيد من سعرها"

هكذا لم يعد ينام..

يأتي له أحد السماسرة ليخبره بوجود قطعة أرض صالحة في البلدة الفلانية.. يقال إن سعرها سيرتفع. هكذا يسافر إلى هنالك ويمضي يومًا كاملاً يدرس الموقف، ويعود غير قادر على اتخاذ قرار.. التردد.. الألم.. الشعور بالخديعة.. الشعور بضياع الوقت.. الشعور

بالظلم.. لماذا لا يقدم له أحدهم أفضل فرصة في العالم ولا يطلب شيئًا في المقابل؟.. هذا ظلم..

هنا يدق الهاتف.. صديق له يخبره بوجود شقة ممتازة في الشارع الفلاني.. يرتدي ثيابه ويهرع إلى هناك.. لو ابتاع هذه الشقة لما صار قادرًا على شراء الأرض... لكن الشقة كبيرة وخالية من عنصر المخاطرة، ولن يكون عليك توقيع 578801 ورقة إدارية كما يحدث مع الأرض..

ينام الليل قلقًا.. غدًا سوف يسحب معظم ماله ويذهب مع المحامي لإتمام هذه الصفقة . في الصباح قبل الذهاب للمصرف يأتيه سمسار آخر:

."وزارة الزراعة طرحت أرضًا رخيصة في مجتمع عمراني جديد.. ما زال الأمر سرًا ويجب أن نتحرك قبل أن يذاع"

هكذا تعتل صحته ويصفر لونه ويصير أقرب إلى مصاصي الدماء. لا يأكل بتاتًا ولا ينام.. ويسافر إلى تلك البقعة ليرى الفرصة التي تتيحها وزارة الزراعة، يمضه الشعور بأنه كان سيضيع ماله فيما لا طائل من ورائه لو تصرف قبل هذا.. الأدهى أنه يعرف أن هناك في مكان ما يوجد عرض مذهل لا يعرف عنه شيئًا.. الآخرون يعرفون عنه كل شيء ولا يخبرونه.. الأوغاد يريدون الخير كله لأنفسهم ولا يقاسمونه.. كلهم سيصيرون أثرياء بينما يتسول هو لقمة خبز في الأزقة..

."هناك شقق رخيصة في شارع...."

أو:

."هل تصرفت؟... لحسن الحظ أنك لم تفعل.. هناك أرض للاستصلاح في بلدة....."

لقد صارت حياته جحيمًا.. لهذا عندما قابلته ذلك اليوم وقلت له:

."هناك أرض ممتازة في............"

انفجر صائحًا:

."اخرس!.. لا تقل لي أي شيء!.. لا أريد أن أعرف!"

ثم فتح الجريدة فقرأ خبرًا عن تدهور واضح في رأس مال المصرف الذي يودع فيه أمواله. صاح في فرح:

."فليفلس!... أدعو الله أن يفلس هذا المصرف لأستريح!.. لماذا لا توجد هنا عمليات سطو على المصارف كالتي نراها في الأفلام الأمريكية؟"

نظرت له في حيرة.. لابد أن هناك قصة طويلة تبرر كلامه هذا، لكن وقتي لا يتسع لسماعها. في عالمنا لو كنا ستصغي لكل هراء نسمعه، فلن نجد وقتًا لأي شيء آخر.

• • •

حتى يمر المونديال
بسلام

بالنسبة للنساء، يبدو موسم كأس العالم عيدًا لجنون الأزواج، فهي لا تفهم ولن تفهم تلك التغيرات النفسية التي طرأت على زوجها، الذي يجلس طيلة اليوم أمام شاشة التلفزيون يتابع مجموعة من الحمقى يجرون وراء كرة، محاولين منع مجموعة من المخابيل من أخذها، وفجأة يصرخ زوجها ويقلب المائدة الصغيرة، أو يطلق الشتائم متهمًا (ميسي) أو (هنري) بالتقاعس. طبعًا لا يمكنها في ذلك الوقت أن تكلمه بتاتًا عن صنبور الحمام التالف أو ارتفاع حرارة ابنته. بالنسبة لها هي مجرد لعبة أطفال.. حتى لو تقاضى اللاعبون الملايين فهي لعبة أطفال.

وصلتني هذه الرسالة الطريفة عبر شبكة الإنترنت، وكرهت ألا أنقلها لك.. هي نصائح يوجه زوج كروي جدًا لزوجته بصدد اجتيازها بسلام تلك الفترة العصيبة.. فترة كأس العالم:

زوجتي العزيزة...

أود ان أوجه لك التحية وان أعطيك 12 نصيحة قبل بداية كأس العالم:

1- في الفترة ما بين 11 يونيو / حزيران حتى 11 يوليو / تموز يجب عليك أن تقرئي الصحافة الرياضية وتتابعي أخبار المونديال، وبهذا يمكنك أن تشاركيني الحديث حول ما يحدث؛ وان لم تفعلي هذا فلن يكون أمامي خيار سوى ان أتجاهلك بشكل تام وهو الأمر الذي لن تحبيه.

2- خلال كأس العالم التلفاز يعتبر ملكًا لي في كل أوقات اليوم بدون إبداء الأسباب.

3- إذا أردت ان تمري أمام التلفاز خلال المباراة أو قبلها أو بعدها

فاني لا أمانع أبدا طالما يتم ذلك زحفا على الأرض مثل رجال الكوماندوز في الحرب العالمية.

4- خلال المباريات يجب أن تعلمي أنني لا أرى ولا اسمع ولا أتكلم، الا اذا احتجت منك إلى طعام أو شراب، ولن أوافق على سماع جمل مثل: رد على الهاتف، احضر لنا طعامًا من السوبر ماركت أو افتح الباب.

5- اذا قمت بكل ما سبق فإنني سوف اسمح لك بمشاهدة التلفاز من الساعة 12 مساءً حتى 6 صباحًا.

6- أرجوك ثم أرجوك ثم أرجوك الا تقولي لي "انها مجرد لعبة" أو "سيفوزون في المرة المقبلة" عندما أبدو حزينا لخسارة فريقي في المونديال، لأن هذا لا يساعدني إنما يزيد من غضبي.

7- لن أمانع أبدا في أن تشاهدي مباراة واحدة معي وسأسمح لك بالكلام خلال فترة الاستراحة بين الشوطين، فقط إذا كانت نتيجة المباراة لصالح فريقي الذي أشجعه، أرجو وضع خط تحت كلمة مباراة واحدة فقط.

8- الإعادة التلفزيونية للأهداف مهمة جدا لي ولا اهتم إذا شاهدت الهدف 100 مرة فلا تظهري تذمرًا.

9- قولي لأصحابك وأصدقائنا بشكل عام الا يقوموا بإنجاب أطفال أو إقامة أي حفلات تتطلب تواجدي معهم لثلاثة أسباب بسيطة؛ الأول هو أنني لن أذهب والثاني هو أنني لن أذهب والثالث وهو الأهم هو أنني لن أذهب.

10- تلغى النقطة السابقة في حالة واحدة وهي ان يدعونا احد أصدقائنا لمشاهدة المباراة.

11- خلال الملخص اليومي لكأس العالم يجب عليك ألا تقولي "لقد شاهدت المباراة فلماذا تشاهدها مرة أخرى؟"، لأن ردي سيكون "ارجعي للنقطة رقم 2".

12- في نهاية كأس العالم أرجو منك الا تقولي "الحمد لله ان كأس العالم تأتي كل 4 سنوات" لأن لدي مناعة ضد مثل هذه الكلمات ولا تنسي أن بعد هذا سيأتي الدوري الإنجليزي والدوري الأسباني والدوري الإيطالي ودوري أبطال أوروبا وكأس اوروبا وكأس الاتحاد الانجليزي، وكأس أسبانيا.... الخ.

• • •

بلا تحيز

أبوه كان معلمًا في ذات المدرسة، ومنذ اليوم الأول عرف صاحبنا أنه شخص غير عادي وأنه متميز بين باقي الطلاب. كان أبوه يمر على الفصل في أثناء الدرس ليحيي زميله هذا أو ذاك، ثم يشير لابنه ويقول:

."هو ابنك كما أنه ابني.. أريد أن تلقنه درسًا وأن تحطم دماغه إذا اقتضى الأمر!"

فيهز الزميل رأسه أن سمعًا وطاعة. هكذا كان طلاب الصف يخطئون في هجاء كلمة (استثنائي) أو ضرب 316 في 789.. يتلقون اللوم جميعًا، لكنه هو بالذات يتلقى علقة ساخنة.. يقول له المعلم وهو يلوي أذنه حتى ليوشك على اقتلاعها من مكانها:

."أبوك طلب منا أن نعاقبك بقسوة.. وأنا بهذا أقدم له خدمة"

كان أول درس تعلمه هو أن الحرص على العدل وعدم التحيز قد يدفع الناس لأقسى أنواع الظلم!.. ولكم تمنى لو عومل كزملائه في الصف الذين ليس لهم آباء في نفس المدرسة..

كان يتشاجر مع زميله الطفل فيسدد له لكمة ويرد زميله بمثلها، هنا يهرع الصبي الآخر إلى أبي صاحبنا يشكو له ابنه الذي ضربه.. يكون رد فعل الأب عنيفًا جدًا ويعاقبه بقسوة كي يبرهن على أنه ليس متحيزًا...

أما عندما يوجه أحد المعلمين سؤالاً صعبًا للصف، فإنه يختص صاحبنا به دون سواه:

."كيف لا تعرف الإجابة؟.. أنت ابن الأستاذ (فلان) ولابد أنك تعرف.."

فلا تمر ساعة حتى يكون أبوه قد عرف الخبر.. ابنك لا يعرف إعراب (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل).. هكذا يكون عقابه في البيت مرعبًا لأنه جلب العار على أبيه.

عندما كبر صاحبنا صار كاتبًا متوسط الشهرة والنجاح. تعرف على ناقد أدبي شهير وصارت بينهما صداقة حميمة.. كان الأدباء الآخرون يرون الاثنين معًا طيلة الوقت فيصيحون في خبث:

." يا لك من محظوظ!.. يمكنك أن تنشر قائمة المشتروات الخاصة ببيتك أو فاتورة الكهرباء، ولسوف يشيد بها هذا الناقد في كل المحافل الأدبية "

كتب روايته الأولى التي شعر بأنها جيدة ونشرها..

عندما فتح مجلة مخصصة للنقد الأدبي، وجد مقالاً عن الرواية كتبه صديقه الناقد يبدأ بالكلمات التالية:

." برغم صداقتي القوية مع الأديب الشاب (فلان) فإن هذا يجب ألا يمنع المرء من أن يكون صريحًا وأن يراعي ضميره الأدبي"

ثم انهال بالشتائم على الرواية وكاتبها الذي هو: إما مجنون أو هو لم يحصل على الشهادة الابتدائية بعد. الحبكة مفككة واللغة ركيكة والشخصيات سطحية.. الرواية مملة وسخيفة وخالية من الأصالة.. الخ....

لم يعتقد صاحبنا قط أنه تولستوي، لكنه لم يعتقد كذلك أن الرواية بهذا السوء. التفسير الوحيد الممكن هو (عقدة العدالة) إياها.. يريد الناقد أن يثبت أن صداقتهما لم تمنعه من أن يكون عادلاً وربما قاسيًا كذلك.. لو لم يكونا صديقين لحاكم الرواية بتساهل أكثر ولراقت له كذلك..

فيما بعد عرف صاحبنا لفظة روسية اسمها (بريجيب).. هذه اللفظة تعني (محاولة تقويم العصا المثنية بحيث تنثني إلى الناحية الأخرى).. الناس تتوقع أن يلقى ابن المعلم تدليلاً خاصًا، وتتوقع أن يثني صديقك الناقد على كتاباتك مهما كانت سيئة.. لإثبات العكس يُعاقب ابن المعلم بقسوة دون زملائه، ويهاجم الناقد هذه الرواية بكلمات لم يكتبها في حياته.. نحن عادلون.. نحن عادلون لهذا سنظلمك ظلمًا فادحًا!

يقول المثل المصري: "لحمتك مشفّتة ليه؟.. عشان الجزار صاحبي!". أي أن الجزار صديقي لهذا انتقى لي بالذات أسوأ قطعة لحم ممكنة.. والمعنى الشائع له أننا لا نخدع إلا معارفنا القريبين، لكني أضيف له هذا المعنى.. البريجيب!

• • •

المواظبون

حقًا لا يملك كل الناس مفاتيح النجاح بصورة متساوية. ينظر الرجل إلى جسده في المرآة ويشفط بطنه عدة مرات، ثم يفطن للحقيقة المروعة: وزني يزداد..

طبقًا لحالته المادية، إما أن يقرر الركض اليومي أو يبتاع لنفسه جهاز تدريب غالي الثمن: دراجة أو آلة تجديف.. ثم يقرر أن يمنح لياقته ربع ساعة كل يوم. في اليوم الأول هو متحمس.. في اليوم الثاني هو مصمم.. في اليوم الثالث هو مُصر.. ثم بعد يومين تفتر حماسته خاصة أنه لم يتحول إلى أبوللو فجأة، ولم تزل تلك الشحوم من بطنه.. بعد أسبوعين تتحول الدراجة إلى قطعة ديكور أنيقة.. نصب تذكاري يقول إن صاحبنا كان رياضيًا يومًا ما..

بعد أعوام يضرب على بطنه المكتنزة ويقول لرفاقه في أسى:

."فقط لولا الانشغال.. لولا الانشغال لأعطيت جسدي ما يستحق من رياضة"

طبعًا لا دخل للانشغال هنا.. من لا يجد ربع ساعة من وقته يوميًا لابد أنه حاكم العالم.. فقط هو العجز عن المثابرة..

كقاعدة لا أحد يلعب الرياضة بانتظام أبدًا ما لم تكن مهنته.. أي أن يكون رياضيًا محترفًا سيموت جوعًا لو لم يتدرب. الرجل العادي يتحمس 3 أو 4 مرات ثم ينسى الأمر، لأن المواظبة على شيء غير ملموس مملة جدًا وصعبة.

ينطبق هذا على أمور أخرى كثيرة.. كلنا جربنا الادخار في طفولتنا.. ضع قرشًا في الحصالة كل يوم وبعد أعوام ستكون من أثرياء العالم. كلنا تحمسنا وواظبنا على ذلك شهرًا أو شهرين، ثم سرعان ما تفتر الهمة.. والأهم أنك تنسى مكان الحصالة ويضيع ما فيها من

مال. البخل عادة ذميمة، لكني لا أنكر إعجابي الخفي بالبخلاء الذين يستطيعون المثابرة على عادة، مثل الاحتفاظ بباقي الشطيرة أو غلي بقايا الشاي عدة مرات، وهذه العادة يصنعون منها ثروة..

أما عن القراءة فموضوع مهم فعلاً.. معظم الناس لديهم فكرة مبهمة عن يوم يقرءون فيه بنهم ويصيرون رائعين، لكن المشكلة أن هذا اليوم لا يأتي أبدًا.. يقوم كل منهم بتجميع عشرات ومئات الكتب في مكتبته، وهو لا يعرف عنها إلا أغلفتها.. يقرر كل يوم أن يجلس ليقرأ ساعة يوميًا.. بعد أشهر سيكون مثقفًا حقيقيًا لا يشق له غبار. النتيجة هي أنه يقرأ أول ثلاث صفحات في ثلاثة كتب.. ثم ينسى الأمر برمته.. لكنه يردد دومًا وهو يرمق الكتب في حنين:

"فقط لولا الانشغال.. لولا الانشغال لقرأت هذا كله".

وهو لا يصدق أبدًا أنه لن يقرأ.. يظل هكذا حتى يشيخ ويضعف بصره وتنتقل الكتب لورثته الذين لن يقرءوها هم أيضًا..

معظم مشاريع (كلمة إسبانية كل يوم) و(بيت شعر كل يوم) و(ربع ساعة من التدريب يوميًا) تفشل دائمًا.. راسبوتين هو المثال الوحيد الناجح الذي يحضرني هنا، فقد اتبع شعار (جرعة سم كل يوم) حتى درب جسده على تقبل جرعات سم قادرة على قتل جيش.. هذا رجل ناجح لهذا يعرفه الجميع.. صحيح أنهم أطلقوا عليه الرصاص وألقوا بجسده في نهر الفولجا المتجمد، فلربما كان السم أفضل للموت بالنسبة له، لكن هذا لا ينكر أنه رجل قوي الشكيمة.

أعرف أكثر من واحد قرر أن يغوص في عالم الموسيقا الكلاسية، وهكذا اشترى حشدًا من تسجيلات بيتهوفن وموتسارت وباخ وهايدن.. يدير أول أسطوانة وينصت في انبهار واستمتاع.. سوف يصير راقيًا..

سوف يصير من عشاق الموسيقا الكلاسية وخبرائها.. بعد عشر دقائق يشرد ذهنه.. بعد قليل يبدأ في الكلام عن اشياء أخرى.. بعد خمس دقائق يخرس هذه الضوضاء.. في اليوم التالي يتكاسل عن السماع.. بعد شهر غالبًا ما يكون قد مسح كل هذه التسجيلات وسجل عليها أغاني (شعبان عبد الرحيم)..

المواظبة!... الكلمة السحرية التي تميز هؤلاء الذين نجحوا في الحياة وهؤلاء الذين لم يحققوا شيئًا.. العالم ينقسم إلى المواظبين وسريعي الملل، ويمكنك بسهولة أن تعرف نوعي إذا عرفت أنني سئمت كتابة هذا المقال وأريد أن أنهيه حالاً!

• • •

المونديال والدروس المستفادة

أوشك المونديال على الانتهاء ما لم يكن قد انتهى فعلاً عندما تقرأ هذه السطور، وقد حفل بالمفاجآت العجيبة؛ مثل خروج إيطاليا وفرنسا وإنجلترا في وقت مبكر جدًا، وتأهل منتخبات غامضة لم نسمع عنها من قبل... على كل حال يمكن تلخيص الدروس المستفادة من المونديال كي تنتفع بها الفرق العربية في المرات القادمة، ولهذا التلخيص أهميته كما تعرف باعتباري خبيرًا باللعبة. حتى وقت قريب كنت الوحيد في العالم العربي الذي يعتقد أن (محمود الخطيب) هو نجم فريق الترسانة، وكنت أعتقد أن ركلة الجزاء هي ركلة يوجهها الحكم لمؤخرة اللاعب الذي ارتكب خطأ، وأن الأوفسايد والكورنر لهما ذات المعنى:

1- دروجبا لا يفعل شيئًا سوى أن يبدو خطيرًا مرعبًا.

2- ميسي كذلك لا يفعل شيئًا.

3- ما دام الأمر كذلك فرونالدو وروني لا يفعلان أي شيء.

4- كل ركلات الجزاء لا تدخل الهدف أبدًا.. نجم غانا أضاع ركلة جزاء في آخر دقيقة من المباراة الطويلة التي كانت ستدخل فريقه التاريخ، ولو كلفوني أنا بتسديد هذه الضربة لمزقت شباك المرمى. عندما تقوم أنت بتشجيع اللاعب الذي سيسدد ضربة الجزاء ينكمش المرمى ليصير بحجم قفص العصافير.

5- ركلات الجزاء تدخل دائمًا حتى لو سددها لاعب كفيف مصاب بالشلل الرعاش. يكفي أن تشجع الفريق الذي سيتلقى ضربة الجزاء حتى يتسع المرمى ليصير في حجم الكون كله. لو أن طفلاً نفخ في الكرة لسجلت هدفًا.

6- هذه الصفارة اللعينة (الفوفوزيلا) التي ينفخونها طيلة

المباريات ابتكرها بالتأكيد جنرال نازي مجنون أراد تحطيم أعصاب الأسرى. لا شك أن الذباب والبعوض وجدوا البيئة المثلى لهم في وجود هذه الأداة الكريهة، وأعتقد أن نسبة سرطان المخ ستتزايد في جنوب أفريقيا في الأعوام القادمة.

7- هناك علاقة قوية بين تلك الإعلانات التي تصاحب المونديال وتظهر اللاعب مرعبًا لا يشق له غبار، وبين فشله الذريع في المباريات. إعلانات هذا المونديال كانت تتضمن ميسي ورونالدو ودروجبا.. هكذا صار من المحتم أن تكون هذه أسوأ مباريات لهم. لعل هذا تكرار للمثل المصري (دار على شمعتك تقيد).. كلما استعرض اللاعب أكثر وتظاهر بالبراعة، كلما كان أقرب إلى الفشل.

8- تقبيل اللاعبين قبل وبعد المباراة على طريقة مارادونا لا يحقق نتائج باهرة.. على الأرجح يؤدي إلى الخسارة. لا أعتقد أن قبلة من مارادونا شيء يدعو للحماس على كل حال.

9- الحكام لا يرون شيئًا على الإطلاق.. يبدو أن أغلبهم في هذا المونديال مصابون بعمى الأنهار.

10- كل مشاهدي المباراة والمعلقين عباقرة يعرفون ما كان ينبغي عمله بالضبط وأين يكمن الخطأ. الوحيدون الذين لا يعرفون ما ينبغي عمله هم اللاعبون ومدربهم. أقترح أن يوجدوا طريقة لتحليل المباراة وأحداثها وما وقع فيها من أخطاء قبل أن يبدأ اللعب، ويصغي المدرب واللاعبون لهذا التحليل قبل أن ينزلوا الملعب.

11- كل اللاعبين البارعين يبصقون طيلة الوقت، خاصة عندما تسلط الكاميرا عليهم ويراهم العالم كله.

12- معظم اللاعبين يعتقدون أن هذه مباريات كرة يد.

13- لا سبيل لقهر الفريق الألماني إلا لو سمحوا للفريق الآخر بأن يحمل بنادق آلية.

هذه هي النصائح القيمة التي أقدمها لأبناء أمتي العرب، وآمل أن تجد من يستفيد منها من أجل البطولات القادمة إن شاء الله.

• • •

لأننا مهمون

نحن مهمون يا سادة.. لا نشغل وقتنا إلا بعظائم الأمور، ولا نفكر إلا في القرارات المصيرية.. نحن رائعون ونعرف أننا كذلك..

تأمل الروعة وحسن الحظ!.. كم من من واحد عاش ومات دون أن يعرف أنه مهم؟، لكن الروعة الحقيقية تأتي عندما يعرف الشخص الرائع أنه رائع..

هناك ذلك الموظف النحيل الذي يعمل لدينا في الشركة.. اسمه (صلاح) أو (صالح) على ما أذكر.. إنه نموذج للطريقة التي يكون بها المرء غير مهم على الإطلاق.. لا شيء يشغله ولا شيء في عقله الشبيه بعقل ذبابة...

كان هناك اجتماع للمديرين التنفيذيين في الشركة في تمام العاشرة صباحًا.. لم يحضر أحد حتى الحادية عشرة لكن هذا الصلاح كان هناك في القاعة في العاشرة بالضبط.. إنه دقيق في كل مواعيده ويمكنك أن تضبط الساعة عليه.. لكن السبب لا ينبغي أن يبهرك.. السبب ببساطة هو أنه غير مهم على الإطلاق ولا يوجد شيء حقيقي يشغله، لهذا هو دقيق في مواعيده.. من السهل أن تكون دقيقًا في المواعيد عندما تكون نكرة لا يشغلك شيء . الأشخاص المهمون يتأخرون دومًا لأن في رأسهم مليون شيء..

عندما جاء الخبراء الفرنسيون لم يأت معهم المترجم (لأنه مهم هو الآخر).. هكذا خيم الوجوم على قاعة الاجتماع لأن التفاهم معهم مستحيل، لكن (صلاح) أعلن أنه يجيد الفرنسية وبدأ يتفاهم معهم ويترجم لنا وبدا عليهم الرضا...

هذا سهل.. إن عقله خاو أصلاً.. عندما تمتلئ جمجمتك بالفراغ يسهل أن تملأها بالفرنسية والأوردية والمسمارية.. هو غير مشغول

بعظائم الأمور، لهذا لديه كل الوقت كي يدرس أشياء تافهة مثل الفرنسية..

عندما طرح الفرنسيون بعض المشاكل المتعلقة بالسلعة التي ننتجها، أبدى لهم بعض الحلول التسويقية.. بدا عليهم السرور والانبهار، وكان أحدهم يجيد الإنجليزية فسألني همسًا:

- "من هذا الرجل الذي يكلمنا؟"

قلت له في اشمئزاز:

- "موظف صغير عندنا"

بانبهار قال:

- "لو كانت هذه طريقة تفكير موظف صغير عندكم فكيف يكون المديرون؟.. إنني منبهر بكم حقًا"

لقد أصاب كبد الحقيقة.. إن (صلاح) موظف صغير يستمد حياته ورزقه وآراءه من العظام أمثالنا.

حدث شيء مريع في نهاية الاجتماع، فقد شب حريق بالبناية.. وسمعنا الصراخ.. هرعنا ركضًا خارج القاعة متجهين إلى المصعد، فوجدنا الدخان يعم المكان ولم نعد نرى شيئًا.. صاح صلاح بلهجة آمرة:

- "لا تستعملوا المصاعد في حالة الحريق!"

ثم كرر الأمر بالفرنسية.. وأمرنا بأن نزحف على البطون.. السبب كما قال هو أن الهواء النقي يكون قريبًا من الأرضية، وهكذا لن نتلقى جرعة سامة من أول أكسيد الكربون. أنا أذكر اسم هذا الغاز لكن لا أذكر ما هو بالضبط.. زحف حتى بلغ نافذة تطل على الشارع فحطمها ليدخل

الهواء، ثم عاد ليجري تنفسًا صناعيًا لخبير فرنسي فقد الوعي..

المهم أن المطافئ جاءت وأنقذت الموقف، ووجهوا له عبارات المديح على حسن تصرفه، وقال لي رجل المطافئ:

."لو كان هذا موظفًا عندكم فكيف تفكيركم أنتم؟"

الحقيقة أن (صلاح) هذا يبرهن لي في كل يوم عن الحقيقة: بعض الناس خلقوا ليظلوا صغيرين للأبد.. مهما حاولوا لا يمكنهم أن يرقوا لعقليتنا وبراعتنا وحصافتنا. صلاح يتمتع بعقل خاو تمامًا لهذا يحضر في المواعيد بدقة، ولهذا يجيد الفرنسية أو الروسية لو أردت، ويجد حلولاً سريعة، ويعرف كل الكلام الفارغ الذي يجب أن يلتزم به المرء عند حدوث حريق... هذا هو شأنه وهذا هو مستواه العقلي بلا أي أمل في التحسن. لهذا ننال رواتبنا الضخمة، ولهذا ينال راتبه الضئيل.. لهذا نحن المديرون وهو مجرد موظف يسهل الاستغناء عنه في أية لحظة...

إن ضيق أفق بعض الناس يثير جنوني حقًا.

• • •

عراف برغم أنفه

أعلنت ألمانيا أن الأخطبوط بول الذي تنبأ بهزيمة ألمانيا على يد أسبانيا، شخص غير مرغوب فيه وأنها قد أهدرت دمه.. في الوقت نفسه طالب كثير من الألمان بطبخه والتهامه.. والحقيقة أن الأمر لا يخلو من بعض العدالة، لأن نبوءته تلك قد تكون لعبت بعض الأثر في نفسية الفريق الألماني. أنا واحد ممن اعتبروا وصول ألمانيا مسألة مفروغًا منها، حتى أنني تساءلت عن جدوى إضاعة الوقت وإنفاق كل هذا المال، بدلاً من أن يسلموها الكأس وينتهي الأمر..

والمهم أن أسبانيا أعلنت أن الأخطبوط تحت حمايتها.. لا أعتقد أننا سنسمع عن حرب بين ألمانيا وأسبانيا بسبب الأخطبوط، لكن الأمر يحتفظ بطرافته بلا شك...

إن قيام الحيوانات بالتنبؤ أمر شائع على كل حال، ولعل أقدم مثال يرد لذهني هو قيام العرب في الجاهلية بإطلاق سراح الطائر ليروا إن كان سانحًا أو بارحًا . أي هل يطير لليمين أم اليسار..

ومن فقرات الملاهي الشهيرة في كل العالم قيام الفئران البيضاء المدربة بالتقاط قطعة ورق تدل على طالعك. بالطبع يلعب الأمر على قانون الصدفة مع كثير من البراعة والتحايل من المشعوذ نفسه، وهي الطريقة التي يسمونها (القراءة الباردة) ليوحي لك بأن الفأر تنبأ فعلاً...

لكن هذا العراف البائس الذي لا يعرف ما يقوم به، قد يدفع الثمن كثيرًا.. والأخطبوط بول في خطر فعلاً لو وقع في يد أحد المتحمسين أو (الهوليجان) المشاغبين الذين لم يقبلوا فكرة هزيمة ألمانيا..

كان لي صديق طالب طب يعيش وحده، وكان يربي أرنبًا صغيرًا هو كل سلواه في العالم، وقد اعتاد قبل كل امتحان أن يكتب كل عناوين

المنهج في أوراق صغيرة مغلقة أمام الأرنب، ويتركه يختار منها.. المفترض أن هذا هو الامتحان الذي سيأتي غدًا، وكان صاحبي يؤكد أن توقعات الأرنب صادقة في 80% من الحالات.. حتى أنني فوجئت به ذات يوم يمسك بالأرنب من أذنيه ويوجه له السباب:

ـ "سرطان النخاع العظمي أيها الوغد!.. أصعب جزء في المنهج كله أيها الحيوان!!.. يا لك من وحش عديم الضمير!"

قلت له في صبر إن الأرنب يتنبأ وليس هو من يضع الأسئلة، لكن صاحبي كان في حالة بعيدة جدًا عن التعقل، وهو يخرج كتب الأمراض الباطنة ليدرس سرطان النخاع العظمي بدقة..

ازداد الأمر تعقيدًا في اليوم التالي عندما لم يرد في الامتحان حرف من تنبؤات الأرنب. قلت له إن الأرنب – لربما – فهم أن مهمته اختيار الأسئلة التي لن ترد في الامتحان، لكن صاحبي ازداد جنونًا..

زرته في المساء فوجدته لا يكف عن البكاء وهو يتناول عشاءه:

ـ "لقد انتهى أمري!.. رسبت!.. الويل لي ي!!"

لكن ما هذا العشاء بالضبط؟.. لو تركت لخيالي العنان لقلت إنه يلتهم أرنبًا صغيرًا محمرًا.. لكني استبعدت هذا الخاطر على الفور. حتى جنكيز خان نفسه لم يذبح العرافين المخطئين ويسلقهم ويحمرهم ويأكلهم.. كان يقطع رأسهم فقط..

تذكرت قصة مصورة قديمة كان فيها مأمور توتنتجهام يريد مهاجمة خصمه العتيد (روبن هود). رأى أن القط يحك ما وراء أذنه.. وهذا يعني بلا شك أن الجليد سيتساقط قريبًا، وهذا يعني كذلك أن روبن هود وعصابته سيكونون في مخابئهم ويسهل القبض عليهم. هكذا قاد جيشه إلى غابة شيروود وكانت الكارثة أنه وجد عصابة روبين

هود كلها بانتظاره ولم يتساقط الجليد!.. عندما عاد مجروحًا ممزق الأوصال مهشم العظام إلى قصره كان أول شيء فعله أنه ألقى بالقط في السجن!

لشد ما أشعر بالشفقة على هؤلاء العرافين برغم أنوفهم!!

• • •

الكفن بلا جيوب

يتمتع الناس بدرجة عالية من الجشع سوف تثير ذهولهم هم أنفسهم لو أدركوا حجمها الحقيقي. لكنهم كذلك لا يكفون عن الكلام عن الزهد والرضا بما قسمه لهم الله. إن الكفن بلا جيوب والفقير والغني لجثتيهما ذات رائحة العفن.. الخ..

كنت واقفًا عند الصراف آخذ راتبي، عندما دخل المكان زميل عمل يكبرني بعشرة أعوام، وراح يوقع على كشف الرواتب في اشمئزاز وهو يردد:

."مال حرام كله.. والله لم نعمل بربع هذا المبلغ!"

نظر له الصراف في دهشة وإكبار، وقال إنه لم يسمع قط موظفًا يدلي بهذا الاعتراف الخطير.. لكن زميل العمل واصل الاشمئزاز الزاهد:

."كله مال حرام لا نستحقه!"

الجديد هو أنه كان يقول هذا وهو يعد الأوراق المالية بدقة بالغة، ثم قال في صرامة:

."هناك خمسة جنيهات ناقصة!"

ناوله الصراف الورقة الناقصة، فتفحصها بعناية ثم أعلن أنها تالفة ويريد أن يستبدل بها ورقة سليمة. هكذا أدركت انه رجل زاهد متعفف عن متاع العالم، لكنه كذلك لا يريد لأحد أن يخدعه. بالطبع سوف يصرخ في وجه أول متسول يقابله في الشارع لأنه يمقت أن يخدعه أحد.

قراءة الإعلانات تكشف لك أسوأ ما في النفس البشرية، فالرجل يريد أن يبيع جهاز تلفزيون عتيقًا بنفس سعر الجديد لا لسبب سوى

أنه يحب نفسه بجنون. وفي أحد إعلانات الزواج قرأت نداء ملهوفًا من امرأة مطلقة: "أريد رجلاً يتزوجني وينفق علي أنا وابني ويبتاع لي شقة فاخرة!... أرجوكم.. ". الإعلان لا يتضمن أي وعد ولا أي تلميح عن مسرات خارقة للعادة تنتظر هذا الملاك الذي سيبتاع لها شقة وينفق عليها هي وابنها. ولو قالت إنها مارلين مونرو لظل الموضوع غريبًا، فلأنها تحب نفسها بجنون لا تريد عريسًا بل تريد شهيدًا.. تريد بابا نويل يحقق لها كل شيء ولا ينال شيئًا..

أما عن موضوع العقارات فكارثة أخرى.. لدي قطعة أرض صغيرة ارتفع ثمنها.. النتيجة هي أنني أحجمت عن البيع لأن كل العارفين قالوا لي إنني سأكون أحمق لو بعتها.. سوف يرتفع السعر أكثر فأكثر.. هكذا انتظرت.. وهكذا تحملت فترات شديدة القسوة وعسرًا ماديًا بالغًا لأن من الخسارة أن أبدد هذه القطعة..

عندما بحثت حولي وجدت كل الناس أو معظمهم يعانون هذه المشكلة. يجد الرجل أنه مفلس تمامًا وأن ما يملكه من مال موضوع كله في هذه الشقة أو قطعة الأرض تلك.. لا أحد ينعم بما يملكه أبدًا إنما الجميع ينتظرون فرصة أفضل، مذعورين قلقين.. وقد زرت صديقًا لي يمتلك أرضًا في مساحة مدينة القاهرة ذاتها، فوجدت أثاث البيت مهشمًا والسجادة مثقوبة، فلما جاء وقت الغداء قدم لي كمية شحيحة جدًا، وقال آسفًا:

"معذرة.. الحقيقة هي أنني لا أملك مليمًا، ونحن في ضائقة مالية مزمنة!"

أفهم مشكلته تمامًا.. لا يجرؤ أبدًا على بيع الأرض لأن سعرها سيرتفع.. لديه فكرة مبهمة عن يوم يبيع فيه ويصير فيه ثريًا وينعم

بما ادخره، لكن هذا اليوم لا يأتي أبدًا.. لقد صار مكبلاً بالجشع ولن يتحرر أبدًا إلا في القبر. بمعنى آخر لن ينتفع بهذا المال سوى الورثة الذين أرجو ألا ينتظروا ارتفاع الأسعار بدورهم.. في قصة بمجلة ميكي يقول العم الثري (بيسكو) أو (دهب) كما نعرفه نحن: يومًا ما سأنعم بكل هذا المال، وسوف أعوض كل أكواب الآيس كريم التي حرمت نفسي منها طيلة حياتي..

في قصص ألف ليلة يجد السندباد نفسه غارقًا في الديون ويفر من بغداد، ويترك جاريته الحبيبة (الزاهية). يباع قصره ويجري التجار مزادًا على بيع الزاهية.. في كل يوم يتزايد السعر ويضطرون إلى استكمال المزاد غدًا . وفي اليوم التالي تستمر المزايدة وينتهي اليوم بلا نتيجة.. هكذا يكتشف السندباد في سرور أن جاريته لن تباع أبدًا.. سوف تستمر المزايدات إلى الأبد، والنتيجة هي أنه يعود إلى بغداد ليسدد ديونه ويستعيد الجارية الأثيرة لديه...

الجشع.. العاطفة التي تسيطر على الجميع برغم أننا لا نكف عن الكلام عن القناعة والكفن الذي لا جيوب فيه.

• • •

رجل شهير

كما قلت من قبل، أنا رجل يفضل أن يترك وشأنه.. أقف على الشط أرقب السابحين، وأمقت أية محاولة لجري جرًا لأسقط في الماء..

لكن هناك تلك المواقف التي أرغم فيها إرغامًا على أن أثب في الماء. المفترض أنني كاتب معروف وبالتأكيد لدي ما يُقال في أي مكان في أية لحظة. مثلاً تجلس في ذلك الحفل تلتهم الطعام في نهم وتمسك بفخذ دجاجة تنزع عنه اللحم، عندما يقول أحدهم:

"طبعًا لا يمكن أن يكون معنا د. (أحمد) ولا تسمع رأيه.."

هنا أفطن إلى أن الكلام موجه لي، فأرفع فمًا غارقا بالصلصة وأتساءل عما يدور. يسألونني عن رأيي في تطبيق الحوكمة على مؤسسات القطاع الخاص.. يجب أن يكون لدي رد جاهز وبليغ جدًا، كأنني قضيت حياتي أفكر في الحوكمة ولا أنام بسببها. ويجب أن أدلي بهذا الرأي وأنا أحمل في يدي فخذ دجاجة.

مثلاً أمر جوار زميل عمل يدلي بحوار للتلفزيون. الميكروفون والعدسة مصوبان لوجهه. أمر على أطراف أصابعي حتى لا أظهر في الكادر، لكنه يشعر بي فيصيح في مرح:

"لا يُفتى ومالك في المدينة.. هذا هو زميلي د. (أحمد) ولسوف يخبرنا برأيه في مبدأ مونرو وعلاقته بنظرية آدم سميث"

هكذا أجد نفسي خلال ثانية قد صرت أمام العدسة، وعلي أن أقول كلامًا ذكيًا جدًا يلخص رأيي الذي تعبت في استخلاصه بصدد هذه النقطة.. باختصار يجب أن يكون لدي رأي متكامل عن كل شيء في أية لحظة من حياتي.. لا يتركون لك فرصة للتفكير.

الموقف السخيف الآخر هو عندما أكون مع صديق قديم في مكتبه

نتكلم. هنا تدخل الغرفة سكرتيرة متعجلة على درجة من الملل.. تأخذ بعض الأوراق وتوشك على الخروج، لكن زميلي يستوقفها:

."خمني.. هل تعرفين هذا الوجه المميز؟"

تنظر لي في كراهية ثم تقول:

."لا.."

كأنها تبصق..

يقول في حماسة:

."هذا هو د. أحمد.. ألم تقرئي له من قبل؟"

تنظر لي في مقت هذه المرة وتقول وهي تقف على الباب:

."لم أقرأ له قط.. ولم أره قط.. ولا أعرف من هو.."

أهمس لزميلي أن يرحمني ويخرس، لكنه مصر على أن تتذكرني وإلا فالويل لها:

."بالتأكيد قرأت له مقالاً في جريدة كذا أو جريدة كذا.. هل قرأت له رواية كذا؟"

تهز رأسها نفيًا وهي تنقل قدمًا بدلاً من قدم، فيقول لها في إصرار:

."يظهر كثيرًا جدًا على قناة (السحلية) الفضائية.. ألم تريه في لقاء طويل أول من أمس؟"

تنظر لي طويلاً ثم تقول في ضيق:

."لم أره.."

."لحظة.. هل تتابعين قناة (السحلية)؟"

تقول بنفس النغمة:

."أتابعها ولا تشاهد في دارنا أية قناة أخرى.. وأجلس أمامها أربعًا وعشرين ساعة، لكن برغم هذا لم أره قط.."

هنا أكون قد بلغت النهاية فأتوسل لصديقي توسلاً أن يسمح لها بالرحيل، فتنطلق هاربة كأنها سفاح يفر من السجن.. يهز رأسه في دهشة ويغمغم:

."غريب هذا.. كنت أحسب الكل يعرفك.. لقد بلغ الجهل بالناس مبلغًا.."

هنا يدخل صبي البوفيه يحمل القهوة، فيستوقفه صاحبي ويقول لي:

."محمدين ولد صعيدي طيب وجدع... الكل يحبه هنا.. لكن هل تعرف من الجالس معي يا محمدين؟.. هل تعرف كم أنت محظوظ؟"

ينظر لي محمدين في شك وكراهية مع لمسة سخرية.. بالتأكيد لست المدير، ولست رئيس البلاد فهو يعرفه، ولست رئيس الوزراء فصورته في جريدة اليوم.. إذن من أنا؟

نعم.. كما قلت لك أرحب جدًا بدرجة من الإهمال.. الإهمال الصحي الذي يعطيني حريتي. ومن فضلك لا تسألني عن رأيي في اقتصاد السوق وأنا ألتهم الدجاج أو اللحم الضأن.. سأكون لك شاكرًا.

• • •

الهاتف الصيني

هناك لعبة يعرفها الغربيون في الحفلات العامة، اسمها (الهاتف الصيني). وفي هذه اللعبة البسيطة جدًا يقوم اللاعب الأول بسرد قصة معقدة لأول اللاعبين.. يحكيها همسًا في أذنه.. مثلاً:

."أمس كنت امشي في الشارع، عندما هبطت أمامي طائرة (ميسير شميت) ألمانية احترق محركها، وكان أدولف هتلر يجلس في المقعد الخلفي، لأنه فر من ألمانيا بينما العالم يحسبه انتحر. وهنا هرع رجل المرور ليسحب رخصته لأنه عطل المرور في شارع سليمان"

يكون على اللاعب الذي سمع القصة أن يحكيها همسًا للاعب آخر.. وهذا يحكيها للاعب آخر.. وهكذا بعد عشرة لاعبين مثلاً يحكي اللاعب الأخير القصة بصوت عال:

."أمس كنت في الطائرة عندما سقط جاري مغشيًا عليه.. تبين أنه أينشتاين الذي لم يمت، وقام رجال أمن الطائرة باعتقاله وربطه بالأصفاد لأنهم حسبوه إرهابيًا.. وهكذا تعطلت حركة الطيران بين تايلاند وماليزيا "

الفكرة هنا أن عدم الدقة يؤدي لتغير في الأحداث من فم لآخر، والنتيجة هي أن القصة تتحول إلى قصة أخرى تمامًا، وكل رجل شرطة يعرف أن أسوأ لحظات حياته هي اللحظة التي يعتمد فيها على ما رآه شهود العيان. لو كان الشهود أربعة فلسوف يسمع أربع قصص مختلفة تمامًا ويكون عليه القبض على أربعة متهمين بأربع تهم مختلفة.. وهي الفكرة التي عالجها العبقري الياباني أكيرا كوروساوا ببراعة في فيلم (راشمون) حيث تسمع ما حدث للزوجة وزوجها مع قاطع الطريق، بخمس طرق مختلفة. نقاد كثيرون رأوا الفيلم عندما كان يعرض في الخارج وقد

حكى كل واحد منهم قصته، فكانت النتيجة أنه حكى فيلمًا مختلفًا تمامًا!
ولم أعرف القصة الحقيقية إلا عندما رأيت الفيلم بنفسي منذ أعوام...

ننتقل إلى مهنة الطب التي أعمل بها. عندما يذهب المريض لطبيب قبلك، ثم يقرر أن يأخذ رأيك، فهو يحكي لك قصصًا عجيبة تجعلك تشك تمامًا في زملاء المهنة.

خذ عندك هذا المريض الذي كان يعاني ألمًا عنيفًا عاصرًا في الصدر، وذهب إلى طبيب شهير.. ثم جاءني المريض ليقول لي إن الطبيب فحصه وقال له: لا تجر تخطيطًا كهربيًا للقلب.. إياك أن تفعل وإلا متّ حالاً!...

أحك رأسي في عدم فهم.. وأستوثق من أنني لست مجنونًا:

."هو قال لك ألا تجري تخطيطًا للقلب؟.. ومنذ متى يقتل تخطيط القلب؟. ومتى يجرون تخطيط القلب إن لم يكن لألم شديد في الصدر؟"

فيصر المريض على كلامه حتى أعتقد أن الطبيب الأول هو المجنون حتمًا، وأتحسر على مستوى الأطباء الذي يشهد تدهورًا مستمرًا.. طبعًا أجري تخطيطًا للقلب فأكتشف أن المريض مصاب بنوبة قلبية شديدة تستدعي دخول العناية المركزة. بعد أن يتحسن المريض أكرر سؤالي فيحاول التذكر ثم يقول:

."لا.. لم يقل: لا تجر تخطيطًا للقلب.. قال: لا تجر قسطرة لشرايين القلب التاجية الآن!"

ومعنى هذا أن كلام الطبيب الآخر سليم تمامًا.. أما لماذا لم يجر تخطيطًا للقلب فقد أجراه، لكن المريض قرر ألا يخبرني حتى يظل رأيي طازجًا محايدًا!

مثال آخر للهاتف الصيني في مجال الطب. قريبي هذا رجل مسن يعاني من مشاكل مع غدة البروستاتا وقد أجرى فحصًا لأخذ عينة من الغدة لتحليلها. هناك احتمال وجود ورم سرطاني لا بأس به. اتصلت به لأطمئن على نتيجة فحص الأنسجة، فقال في ضيق:

"العينة تالفة.. الأنسجة التي أخذوها هي أنسجة من الاثنتي عشر!".

فلو كنت قد نسيت دروس علم الأحياء أو البيولوجي، فلتتذكر أن الاثنتي عشر جزء من الأمعاء.. موجودة هناك في أعلى بطنك إلى اليمين قليلاً.. والبروستاتا هناك في أعمق أعماق الحوض تحت المثانة. لكي يحاول المرء الحصول على عينة من البروستاتا فيخرج بأنسجة من الاثنتي عشر، فعليه أن يكون حمارًا.. دعك من أنه حمار يملك منظارًا طوله مثل خرطوم الحديقة.. كأنك تحاول أخذ عينة من اصبع القدم فتأخذها من العين..

أقول لقريبي إن هذا مستحيل فيكرر أن هذا هو ما حدث.. ثم يشتم الأطباء والطب الذي تحول لتجارة.. ويشتمني لأنني طبيب.. الخ..

في النهاية أمسك التقرير بيدي فأجد أن الأنسجة التي وجدوها جاءت من المثانة.. المثانة.. هكذا يكون الكلام معقولاً والخطأ هنا وارد.. أما سبب الخلط – يقول قريبي – فهو أن المثانة والاثنتي عشر تشتركان في حرف الثاء، وهذا يكفي لجعلهما عضوًا واحدًا!

الهاتف الصيني!.. حدثني أنا عن الهاتف الصيني خاصة في مجال الطب.. ولتحمد الله على أنك لست رجل شرطة مطالبًا باستخلاص كلام مفهوم من شهود الحوادث.

• • •

رمضان كريم

كل عام وأنت بخير..

كل عام ومدام (بدرية) بخير كذلك.. من هي مدام بدرية؟.. لابد من أن تقرأ هذه السطور لتعرف..

لا أعرف إن كنت ستقرأ هذه السطور في رمضان أم لا، لكن الموضوع يصلح لأي وقت على كل حال، فليس من المحتم ألا نتكلم عن عادات رمضان إلا في رمضان..

مدام بدرية زوجة محترمة فاضلة وأم طيبة، وعامة لا غبار عليها.. مشكلتها تبدأ في رمضان. إنها مولعة بالدراما التلفزيونية جدًا.. مولعة بها كأنها ناقد فني يجيد عمله. وحبها للدراما التلفزيونية لا ينبع من حبها الشديد للفن، لكنه ينبع من شعورها بأن هذه التمثيليات نوع من التلصص عما يحدث في بيوت الآخرين.. هناك كاميرا تجسس مخفية في عدة بيوت تراقب كل ما يحدث، وهي ترى هذا كله وهي جالسة مستريحة على مقعدها الأثير.. هذا أروع من أن يكون حقيقيًا..

هكذا يقترب رمضان، فتهرع السيدة بدرية إلى المجلات الفنية التي تذكر خطط البرامج، تبتاعها كلها وتبدأ في الدراسة.. مسلسل سوري على قناة كذا.. مسلسل خليجي على قناة كذا.. مسلسل مصري بطولة يحيى الفخراني على قناة كذا.. الأمر معقد.

تحضر كراسًا وتبدأ في وضع مخطط دقيق.. سوف يبدأ هذا المسلسل في الثامنة، ومشاهدته تستلزم التضحية بمسلسل آخر في الثامنة على قناة أخرى . لا بأس.. هي لا تحب الفنانة فتكات على حال.. عندما ينتهي المسلسل الأول في التاسعة إلا الربع سيكون لديها ربع ساعة استراتيجي يسمح بمشاهدة نهاية حلقة من مسلسل آخر.. نهاية الحلقة غالبًا تخبرك بما تم فيها... وتأتي التاسعة ويكون الوقت قد جاء بالضبط لمشاهدة مسلسل مصري على قناة أخرى...

أروع ما في هذا المسلسل الأخير أن ممثله شهير جدًا، ولهذا هناك الكثير من الإعلانات.. هذا يسمح بمساحة وقت تعد فيها لنفسها كوب شاي مع قطعة من الكنافة.. تنسيق جدير بعملية إنزال جوي يقوم بها جيش ضد جيش آخر، ولابد أن هبوط الحلفاء في نورمندي في الحرب العالمية الثانية لم يكن بهذا التعقيد ولا هذه الدقة..

هكذا يبدأ رمضان، والجدول معها.. تعد الإفطار وتصلي المغرب فالعشاء ثم يبدأ التلصص.. الأولاد في غرفهم يدرسون وزوجها يتأخر مع رفاقه ليلاً، لذا تهرع لتعد لنفسها طبقًا مليئًا باللب وتبدأ تنفيذ المخطط.. تفتح التلفزيون على موعد المسلسل الأول.. قائد الفرس يحاول الفوز بالأسيرة العربية الحسناء لنفسه.. ثم المسلسل التالي حيث يسرا تكتشف مؤامرة للتجارة بأطفال الشوارع.. المسلسل الثالث والأب يكتشف أن ابنته تقابل (عادل).. المسلسل الرابع حيث يقرر المطاريد الصعايدة أن يخضعوا لـ (حمدان) صاحب أكبر شارب فيهم.. المسلسل الخامس حيث يكتشف الباشا أن الصحفي الذي يهاجمه في مقالاته هو (إبراهيم)..

من وقت لآخر وفي فترات مدروسة تهرع للمطبخ لتعد لنفسها كوب شاي أو فنجان قهوة تعالج به الصداع في رأسها. لحسن الحظ أن التترات طويلة جدًا في المسلسلات المصرية..

تقلب صفحات الكراس وتضع علامة على كل مسلسل شاهدته. عندما يعود زوجها تكلمه وهي لا تعرف ما يقول.. تعد السحور وهي تختلس النظر إلى التلفزيون في الصالة، ويجلس الجميع للأكل بينما هي لا ترى ما يدور حولها وتدس الطعام في عينها وأنفها.. تضحك لأن (نهى) ضحكت في هذا المسلسل، وتتصعب لأن (سليم) يخدع خطيبته

في ذلك المسلسل، وتبكي لأن (ثريا) صارت أرملة في ذلك المسلسل.. ثم يدخل الجميع فراشهم ليناموا فتبقى جالسة مفتوحة العينين.. لقد شاهدت 356878 مسلسلاً فلم يبق سوى 56767 مسلسلاً قبل أن تشعر بالراحة والرضا عن يومها..

ما علاقة رمضان بالمسلسلات؟.. علاقة غامضة تساءل عنها مفكرون كثيرون، وهو نفس السؤال القديم عن علاقة رمضان بالفوازير والمكسرات والقطائف.. بالنسبة للمصريين تظل القطائف والمكسرات بقايا من التراث الفاطمي القديم، لكن يمكنني أن أقسم- دون أن أكون خبيرًا تاريخيًا - أن الفاطميين لم يكونوا مولعين بالمسلسلات.

ما أعرفه هو شيء واحد: عندما يقترب رمضان من نهايته تكون مدام بدرية قد ازداد وزنها عشرة كيلوجرامات.. إنها لا تدري ماذا تأكله ولا بأية كمية. كذلك تكون أحداث المسلسلات قد تداخلت تمامًا.. قائد البيزنطيين ينتظر عودة البنت (هالة) من الكلية لأنه يعتقد أنها تزوجت عرفيًا من زعيم المطاريد. سيف الدين قطز غاضب جدًا لأن المستند المهم قد اختفى وهو يخشى أن يصل للنيابة، وهو يعتقد أن شجرة الدر تتعاطى المخدرات، والباشا يحب منى لكنها تمضي أكثر الوقت في الديسكو..

بعد العيد سوف تحتاج مدام بدرية لأسبوعين من الراحة حتى تغسل روحها وعقلها من هذه المعاناة، لكن الأمر في رأيها يستحق.. وهي راضية سعيدة لأنها لم تضيع الشهر هباء.. صحيح أنها لم تر سوى خُمس المسلسلات المعروضة، لكن على المرء السعي وليس عليه إدراك الكمال.

• • •

بدون مزاج

هناك طرق عديدة لصنع فيلم سينمائي، منها الطريقة المستقلة: هذه قصة جيدة.. نريد أن نحولها إلى فيلم.. هاتوا كاتب سيناريو يقوم بالعمل..

الطريقة الهوليوودية هي: نحن نريد صنع فيلم لأننا ندير مصنعًا وليس شركة إنتاج.. لابد أن تظل العجلة دائرة.. هاتوا قصة لفيلمنا القادم. هكذا ينهمك جيش من القراء في مطالعة الروايات ويلخصونها، وفي النهاية يجد المنتج نفسه أمام عدة أفكار يختار بينها..

هناك أسباب عديدة لصنع فيلم، وقد حكى أحد كتاب السيناريو الأمريكيين عن مقدمة سفينة جميلة وجدتها شركة فوكس في مخازن ديكوراتها، فكلفه المنتجون بأن يكتب فيلمًا يتم استعمال هذه المقدمة فيه، وقد كتب قصة ممتازة تحدث في الحرب العالمية الثانية، ثم اكتشف أن المقدمة تعود لعصر كولومبوس!

الطريقة المصرية في الإنتاج قد تكون مختلفة تمامًا، وأنا متأكد من وجودها إذ بوسعي أن أقدم لك أسماء عشرة أفلام تنتمي لهذه الطريقة..

هناك نجم ليس له مزاج للتمثيل ولا يريد أن يقدم شيئًا ما، ولكن أيام الفراغ تطول ولا أحد يتصل به من المسرح، من ثم يرفع سماعة الهاتف ليطلب صديقه الكاتب..

."كيف الحال يا نجم؟... هل لديك نص مناسب؟"

الكاتب ليس لديه مزاج للكتابة وليس لديه ما يقوله ويتمنى لو صمت للأبد.. لكنه ينظر لنفسه في المرآة ويقول :

."أنا كاتب.. إذن لابد أن أكتب.. لابد كذلك من دفع أقساط الثلاجة والغسالة"

هكذا يحضر أوراقًا أو يجلس أمام شاشة الكمبيوتر ويكتب قصة.. هناك شرم الشيخ بشكل ما.. هناك عصابة.. هناك خطة وضعتها الشرطة تقضي بأن يحل أحد العاطلين محل عضو مهم في العصابة.. هذه الحبكة استعملتها السينما المصرية ألف مرة لكن لا بأس من سطر يسخر منها يقوله أحد الأبطال.. هناك حمام سباحة وأكثر من مايوه.. هناك علاقات شبابية متعددة.. مثلث الحب (الميناج آتروا) يصلح دائمًا، حيث عزة تحب أحمد وأحمد يحب منى أو منى تحب أحمد وتحاول إفساد علاقته بعزة..

ينتهي السيناريو، فيتصل بمخرج.. مخرج ليس لديه مزاج ولا يريد أن يقول شيئًا.. لكنه لم يعمل منذ أشهر ولم يعد في المصرف سوى ألف جنيه.. إذن لابد من العمل..

المنتج ليس لديه مزاج، لكن هذا عمله.. مدير التصوير ليس لديه مزاج لكنه يقبل..

هكذا يتجه إلى شرم الشيخ أتوبيس يضم عددًا من الأشخاص الذين لا مزاج لديهم والذين يكرهون ما هم ذاهبون له كالجحيم. لكن لابد من العمل.. لابد من وضع أي شيء في طاحونة الإنتاج الجائعة..

مصمم الأفيش ليس لديه مزاج، لذا يفتش في الأفيشات الأجنبية.. منذ ظهر أفيش فيلم (أوشنز أليفن) - لو شئت الترجمة فهي (الأحد عشر رجلاً الذين يعملون لدى أوشان) وهو عنوان سخيف كما ترى - منذ ظهر هذا الأفيش صارت اللعبة سهلة.. ضع أبطال الفيلم كلهم على الأفيش وهم ينظرون لك نظرات احترافية خطيرة. هكذا يرص أبطال الفيلم بأي شكل.. بلا أسماء وبالأبيض والأسود..

الآن يُعرض الفيلم..

عصام وناديه خطيبان في مرحلة خطرة لأن أحدهما لم يعد يشعر باي حب نحو الآخر.. لا يتشاجران وهذه مرحلة أخطر.. ليس لديهما مزاج للشجار.. لا يعرفان ما يفعلان فيلتهمان شطيرتين بلا طعم ويشربان عصيرًا ماسخ المذاق، ثم يقترح عليها أن يدخلا السينما..

. "من أبطال الفيلم؟"

. "لا أذكر.. إنه ذلك الفتى الذي كان في فيلم.. نسيت.. إنه جيد.."

هكذا يدخلان السينما بلا مزاج.. يجلسان في الظلام يتابعان الأحداث الباهتة ولا يفهمان لماذا يحدث ما يحدث، ولا من يريد ماذا.. هذا الفيلم مستمر كالجحيم.. يا رب.. فلينته.. فلينته...

أخيرًا ينتهي هذا الكابوس فيغادران القاعة وقد شعرا بأنهما شاخا وأن هناك ثقلاً على كتفيهما..

أخيرًا يأتي كاتب بلا مزاج.. يقرر أن يكتب مقالاً ساخرًا فيسخر من هذا الفيلم بالذات في مقال كهذا......

هل رأيت كم من الإحباط يسببه الفن الذي لا لزوم له؟

• • •

عبقري

كان عبد الستار أديبًا ذا شهرة معقولة..

اعتاد أن يقرأ قصص حياة العظماء والمشاهير، فعرف أنهم جميعًا كانوا غريبي الأطوار.. لورد بيرون الذي كان ينام بمسدس محشو تحت الوسادة حتى لا يفاجئه الموت، والذي كان يركض وهو يلبس سبعة أثواب حتى يعرق ويفقد وزنه.. تشسترتون الذي وقف في طابور المصرف يسأل الناس عن اسمه لأنه نسي.. خيري شلبي الذي يكتب في المقابر.. نجيب محفوظ الذي كان يكتب كالساعة في وقت محدد يوميًا ولمدة محددة تمامًا.. بلزاك الذي لم يكن يأكل طيلة كتابة رواية مهما طالت الفترة، ثم تنتهي الرواية فيأكل كالثيران حتى يغيب عن الوعي...

كان عبد الستار يقرأ هذه القصص ويرتجف.. هو لا يريد أن يكون غريب الأطوار.. يريد حياة طبيعية تمامًا.. يريد أن يكون أبًا محترمًا وزوجًا مخلصًا وبرغم هذا يظل أديبًا.. وقدر أن هذا ممكن..

انتشر الهاتف المحمول في أيدي الناس، لكن عبدالستار وجده مزعجًا، كما أنه كان من الطراز الذي ينسى كل شيء في آخر مكان يكون فيه.. لهذا لم يشتر هاتفًا جوالاً وظل كلما سأله أحدهم عن رقم هاتفه يعطيه رقم هاتف المنزل الأرضي..

لاحظ عبد الستار أن الأولاد يمضون وقتًا طويلاً أمام التلفزيون، من ثم قرر أن يرغمهم على القراءة.. لم يرد أن يبيع التلفزيون بثمن بخس، لذا فضل أن يقطع السلك الكهربي بحيث لا يستطيع الأولاد استعماله..

مع الوقت كبرت البنات، لذا صار يجد حرجًا في أن يستضيف أصدقاءه في البيت.. هكذا قطع علاقته بمعظم الأصدقاء.. لم يكن يزورهم في بيوتهم لأن معنى هذا أن يزوروه في بيته..

ثم أن عبد الستار فكر في شراء سيارة.. اشترى سيارة قديمة رخيصة الثمن، ثم فطن إلى الحقيقة المرعبة: هو لن يجيد القيادة أبدًا بتوتره وشرود ذهنه.. لذا ظلت السيارة تنتظر أمام البيت وغطاها بخرقة قديمة. مع الوقت اكتشفت القطط أنها بيت آمن ثابت وأقامت فيها إقامة كاملة..

أما عن موضوع الفأر الصغير فقصة طريفة.. لقد وجده في المطبخ يرتجف مذعورًا وهو يقف جوار الموقد عاجزًا عن الفرار لأي مكان. بدا له هشًا مثيرًا للشفقة ولم يتحمل أن يقتله أو يهرسه، لذا أحضر قفصًا قديمًا لعصفور وحبسه فيه، وراح يقدم له الطعام كل يوم.. طبعًا لم تتحمل الزوجة ذلك وهددته بترك البيت إن لم يتخلص من الفأر، لكنه تمسك بموقفه.. بعد قليل لم يعد الأمر يتعلق بالفأر قدر ما يتعلق بمعرفة من صاحب الكلمة في هذا البيت..

النتيجة أن الزوجة جمعت أشياءها وأولادها وذهبت لبيت أسرتها، تركت له الفأر كي ينعم به..

عندما قابلت عبد الستار حكي لي قصته مع زوجته.. فقلت له:

."لا بأس بهذا.. أنت تعرف أعراض الجنون وغرابة أطوار الفنانين"

هنا احمر وجهه في غيظ وقال:

."أنا طبيعي جدًا.. لقد جاهدت طيلة حياتي كي لا تُقال عني هذه الجملة المستفزة"

قلت له وأنا أعد على أناملي:

."أنت فعلاً رجل طبيعي.. أولاً.. ليس لديك هاتف جوال بينما الناس جميعًا اقتنوا واحدًا.. ثانيًا: قطعت سلك التلفزيون لتمنع الأولاد

من مشاهدته.. لا أصدقاء لك ولا تزور ولا تزار.. ابتعت سيارة لتقيم فيها قطط الشارع ولا تقودها أبدًا.. وفي النهاية تربي فأرًا في بيتك، وقد ضحيت بزوجتك كي تحتفظ به!.. "

بدت عليه الدهشة كأنه لم يفكر في هذا من قبل.. عندما تجتمع هذه الأمور معًا يدرك غرابة الموقف. أشرت للمرآة وقلت:

. "ألم تدرك بعد أن الوجه الذي يطالعك عبر المرآة هو وجه مجنون؟.. مجنون مثل إدجار آلان بو وبودلير وكافكا.. أهنئك يا صاحبي.. أنت غريب الأطوار.. "

هذه المرة بدأ نوع من الفخر يغزو وجهه.. لقد صار كالأدباء الذين نقرأ عنهم.. ثم تذكر شيئًا فقال:

. "هناك نقطة بسيطة.. أنا لم أكتب حرفًا منذ خمسة أعوام.. لقد نسيت الأدب تمامًا.. "

قلت في حماسة:

. "هذا جزء مهم من الجنون.. الأديب الذي قطع علاقته بالأدب!.. لقد وصلت!"

لا أعرف إن كان قد صدقني أم لا.. لكني تركته وهو سعيد. ربما أراه في المرة القادمة لأجده يضع كسرولة على رأسه، لكني فقط أدعو الله أن يكون وقتها قد كتب شيئًا يبرر هذا الجنون... دعوت الله كذلك ألا أكون غريب الأطوار أنا نفسي دون أن أعرف ذلك.

• • •

أنت فضولي

عرفت في سن العاشرة أنني فضولي جدًا ، ولدرجة تقترب كثيرًا من الوقاحة..

كنت أدخل على أبي وأمي يتكلمان، فلا يقطعان المحادثة، لكني أسمع كلمات مثل: (هذا المرض العضال – الطبيب يائس – إنها النهاية) أو كلمات مثل (بيع البيت – ورطة مادية – إفلاس).. فأتوقف وأسأل في توتر:

."هل هناك مشكلة؟"

فيقول أبي في أسف وحزن لسوء تربيتي:

."أنت فضولي جدًا.. ما دمت لست طرفًا في المحادثة فلا تتدخل"

أشعر أن الدم يتدفق من أذني خجلاً، وأبتعد بينما المزيد من العبارات يخرق مسمعي (اللص الذي تسلل للبيت – لا تخبري الأطفال – سوف ينتقم)..

في المدرسة كنت أقف مع صديقين نمزح، ثم يميل واحد منهما على مسمع الآخر ويقول له كلمات لا أسمعها.. لكن النتيجة هي أنهما ينفجران في الضحك وهما ينظران لي ويتظاهران بأنهما لا يفعلان ذلك.. ثم يميل الثاني على أذن الأول ويقول له بهمس مسموع:

."لا تخبره بذلك!.. سوف يتضايق جُدا"

هنا أسأل في فضول وقح مزعج عن أي شيء يتكلمان.. فيبدو عليهما الضيق والحرج، ويقولان لي:

."أنت فضولي جدًا.. لو كان الموضوع يهمك لأشركناك في المحادثة"

هكذا تعلمت في سن مبكرة جدًا أنني شديد الفضول ومزعج، ويعلم

الله كم كافحت لأقضي على هذه العادة السيئة، لكن الأمور كانت أقوى مني أحيانًا.. مثلاً عندما يعلق صبي في الصف ورقة على ظهر قميصك، وتجد أن المدرسة كلها تضحك عندما تمر أمامها، فإنك تحاول أن تعرف ما هو المكتوب على هذه الورقة، لكن الجميع يخبرونك أنك فضولي ولا يجب أن تقرأ ورقة لا تخصك..

الحقيقة أن فضولي كان يمنح الناس الفرصة للتسلية علي.. يمنحهم الفرصة لنصحي والظهور بمظهر الحكماء...

في سن الخامسة عشرة نجحت في القضاء على فضولي الكريه تمامًا، ولم أعد أهتم بشيء..

عرفت أنني نجحت عندما كنت أمشي في الشارع ذات مرة، لأجد شابًا يصفع فتاة بقوة.. ظل يصفعها بلا توقف وهو يكرر:

"لابد أن أعرف من هو!".

وهي تكرر بين صرخاتها:

"أنت مجنون!".

لم يكن هناك أحد في الشارع، لكني قررت أن أبتعد . هذه مشكلة عاطفية أو أسرية فمن سوء الخلق أن أتدخل.. أنا لم أعد فضوليًا... لو دعاني أحدهما للحوار لقبلت طبعًا..

في مرة أخرى مررت جوار رجلين يجلسان على سور حديقة، وكانا يتهامسان بذلك الصوت العالي المميز لهمس أبناء البحر المتوسط.. كان أحدهما ضخمًا مشعرًا له يدان عملاقتان، وكان يقول لصاحبه:

"وهكذا بمجرد أن تصعد روحاهما سوف أضعهما في زكيبة وألقي بها في النيل!".

كان الأمر يثير الفضول فعلاً، لكني لم أعد فضوليًا.. لقد تلقيت مئات الضربات في صباي حتى صرت بالفعل لا أريد التدخل في أي شيء.. فقط لو دعاني هذان لأخذ رأيي لجلست أستمع في أدب..

عندما ذهبت للعمل اليوم رأيت أشياء غريبة.. أشياء أقل ما يقال عنها إنها تحرك الفضول. هناك رجل يقف بثيابه الداخلية على حافة نافذة الطابق الثالث.. هناك سيارة إطفاء ونيران تندلع من الطابق الثاني.. هناك خبير مفرقعات يزحف على بطنه ويحاول تعطيل عبوة ناسفة على الإفريز. هناك رجل ملتح يلبس جلبابًا أزرق ويحمل عصا ويصرخ بالألمانية في مجموعة من المارة. هناك كلب بثلاثة رءوس يطارد صبيًا بلا قدمين.. الصبي يركض زحفًا على يديه. هناك طاقم تصوير سينمائي ومخرج يصدر التعليمات لممثل حركات خطرة يركب دراجة نارية مشتعلة..

دخلت إلى مكتبي، فجاء المدير ممتقع الوجه وهو يحمل ملفًا عملاقًا:

."ماذا استجد في الموقف؟"

سألته في حيرة:

."هل يوجد موقف؟"

نظر لي في غيظ ثم قال:

."أحيانًا أشعر بأنك لا تنتمي لهذا العالم.. ما ينقصك هو بعض المشاركة.. الإيجابية . الاهتمام.."

هنا وجدت عيني تنزلق إلى الملف الذي يحمله، وحاولت بحركة لا شعورية قراءة المكتوب عليه، فصاح المدير مغتاظًا:

."بالإضافة لكل عيوبك.. أنت فضولي.. فضولي إلى درجة تثير أعصابي. وهذا يدل على قلة نضج لا شك فيها!"

• • •

أنت لم تفهم

عامة تقابل هذا الداء بشكل أكبر وأكثر شيوعًا لدى النساء، لكن هناك أمثلة تحطم الأعصاب لدى الرجال..

يقول لك (عباس أبو شفة):

."الفئران أول ما يغادر السفينة الغارقة.."

ثم ينظر لك في عينك ويقول في شك:

."هل تفهم ما أريد قوله؟"

طبعًا.. هذا معنى مفهوم وشائع.. الجبناء أول من يرحل عند علامات الخطر، ولا يبقون لتحمل المسئولية.. لكن صاحبنا يهز رأسه ويبتسم في غموض:

."لا.. لا.. من الواضح أنك لم تفهمني.."

."هل تعني أن المخاطر تكشف الجبناء؟"

لا.. هل تعني أن المستفيدين أول من يرحل عند الخطر... لا.. لا.. هل تعني أن السفينة بدأت تغرق؟.. لا.. هكذا تلجأ أنت إلى الحلول البيولوجية الغبية: الفئران تغادر السفن الغارقة أولًا.. هذه حقيقة علمية... فيقول وهو يهز رأسه:

."يا أخي.. كنت أحسبك أكثر الناس قدرة على فهمي.. كنت أقول لرفاقي إنك شديد الذكاء.."

."إذن ماذا تريد قوله؟ أرحني يا أخي ولتعتبرني أغبى الأغبياء . أنا موافق"

لكنه ينصرف وقد بدت عليه الحسرة ويبتسم ابتسامة حزينة خافتة غامضة. فإذا كان حظك حسنًا تعطف عليك وشرح وجهة نظره:

."الجبناء أول من يفر بجلده ساعة الخطر..!"

."أنا قلت هذا.."

."لا.. أنت قلت المخاطر تكشف الجبناء.. هذا ليس ما أريد قوله"

بالإضافة لكونه يعاني من إحساس مرضي بالتفوق العقلي، فهو كذلك أصم لا يسمع!.. أو هو لا يسمع لأنه يفكر في روعة استنتاجاته وعبقريتها. فيما بعد وجدت التفسير في أحد كتب الدكتور (عادل صادق) الطبيب النفسي الراحل. يقول إن معظم الناس يلعبون لعبة تتلخص في (أنا بخير وأنت لست بخير) وهذا يشعرهم بالرضا. إذن هذه اللعبة النفسية السخيفة لها غرض واحد هو أن يشعر بأنه بخير ويشعرك بأنك لست بخير.. هو ذكي غامض عميق كالمحيط، بينما أنت محدود الذكاء سطحي.

أنت تقابل هذا النمط كثيرًا جدًا، والويل كل الويل لمن ابتلاه الله بمدير من هذه العينة. سوف يذبحك ذبحًا وهو يشرح لك ما يريده منك ، ويهز رأسه في كل دقيقة مؤكدًا أنك لم تفهمه وأنه بحاجة لشخص يفعل.. ثم يقول في النهاية ما قلته أنت منذ اللحظة الأولى، ومن المستحيل أن تقنعه بأنك قلت ذلك..

النساء عبقريات في هذه اللعبة، ويمكن لكل رجل متزوج أن يخبرك بذلك. هناك زوجات يقضين العمر كله يشكين من أن الزوج لا يفهمهن، وحتى يموت البائس بارتفاع ضغط الدم نتيجة الغيظ. إنهن مجادلات بالفطرة ويبدو أنهن جئن جميعًا من نسل الفلاسفة السفسطائيين القدماء. تقول لك الواحدة منهن:

."الحياة سجن كبير"

فتقول لها إن الحياة سجن والموت سوف يحرر أرواحنا، فتبتسم في حزن وشفقة وتقول: أنت لم تفهمني . لا أحد يفهمني على الإطلاق.. لنقل إننا مسجونون في الحياة والموت هو فتح البوابة، فتهز رأسها وتؤكد

أنك لا تفهمها.. هذه هي اللحظة التي تجن فيها وتتركها تنعم بالشعور بأنها مرغمة على الحياة مع صخرة..

قررت أن أجرب هذه اللعبة مع (عباس أبو شفة) فأرسلت له مقالاً، وسألته في غموض:

."هل فهمت الرسالة الخفية في هذا المقال؟.. حاول أن تخمن"

رد علي بخطاب شديد العصبية:

."ومن أعطى لسعادتك الحق في اختبار الآخرين؟.. ومن قال إن عندك الجواب الصحيح أو أنه المقياس الذي سنقرر على أساسه؟.. أنصحك أن تكف عن الغرور قليلاً.."

ثم تذكر فقال في فقرة أخيرة:

."هناك كتاب مهم للدكتور عادل صادق يتحدث فيه عن هذه الألعاب النفسية.. أنصحك بأن تقرأه وقل لي ما فهمت منه!!"

• • •

الحقيقة العارية

تحكي القصة الشهيرة عن أربعة من الأشخاص المحترمين كانوا يأكلون البفتيك في مطعم. أخذ كل منهم نصيبه ولم تبق سوى قطعة بفتيك واحدة في الطبق.. وهكذا مرت بهم لحظة من التردد بصدد ما يجب عمله.. لحظات باقي القسمة هذه التي تسبب مشكلة في حياتنا. هنا انقطع التيار الكهربي.. ساد الظلام.. ودوت صرخة رهيبة...

لما عاد الضوء الكهربي، رأوا ثلاث شوك مغروسة.. لكنها ليست مغروسة في البفتيك بل في يد أحدهم!.. كل واحد أراد أن يسرق قطعة البفتيك في الظلام، لكن أحدهم وجد أن سرقتها باليد أسهل.. وهكذا عندما عاد النور افتضحت النفوس وظهر للعيان الشيطان الكامن في الأعماق!

إن اللحظات التي يعود فيها التيار الكهربي أو تتضح حقيقتنا للملأ تكون قاسية جدًا، وموقع (يوتيوب) يعج باللقطات لمذيعين يتكلمون براحتهم قبل أو بعد البث. وهي لقطات فاضحة أعتقد أنهم مستعدون لدفع مال كي لا تعرض. أحد المذيعين الوقورين ظهر وهو يعبث في أنفه بنشاط ونهم، وهناك من يشتم الجمهور بشتائم بذيئة جدًا، ثم تدور الكاميرا فيرسم على وجهه أكثر الابتسامات لطفًا وإشراقًا ويتحول بلمسة سحرية إلى ملاك.

هناك أنواع أخرى من الفضائح تأتي من حيث لا تتوقع.

مر بي هذا الموقف بشكل قاس عندما كنت في الجامعة. كانت هناك انتخابات.. وكنت أقابل طيلة اليوم أشخاصًا لا أعرفهم ولا أذكرهم ينتزعون مني الوعود بأن أنتخبهم:

. "لا تنس.. أنت تعرف إنجازاتنا.. يمكنك بسهولة أن تعرف الطالب النشط من الطالب عديم النفع"

فأبتسم في لطف وأعد بأن أنتخبه، وأنسى اسمه وشكله بعد دقيقة.

جاء صديقي يطلب مني أن أنتخبه للجنة الثقافية بالكلية. صديقي هذا لا يعرف حرفًا عن معنى كلمة (ثقافة) وعلى الأرجح يكتبها (سقافة). كما أنني أشك في قدرته على أن يقرأ الجريدة أو يكتب اسمه (حسن) من دون أربعة أخطاء قاتلة. لكنه صديقي لذا وعدته بأن أنتخبه.

عندما جاء وقت الانتخابات نسيت كل شيء عن الوعود التي قطعتها وانتخبت الشخص الذي بدا لي مناسبًا.

ظهرت نتيجة الانتخابات، هنا فوجئت بهذا الصديق يقابلني بوجه متجهم، ويلقي علي موعظة عن الصداقة والأمانة والوفاء بالعهد.. لقد حصل على صوت واحد..

قلت له في حماسة:

. "هذا أنا.. هذا صوتي أنا!"

قال وهو يبتعد:

. "بل هو صوتي.. أنا الأحمق الوحيد الذي انتخبني!"

يحكون عن ذلك المرشح للانتخابات من أمريكا الجنوبية الذي ظهرت نتيجة الانتخابات، فطلبت زوجته الطلاق.. السبب؟.. لأنه حصل على ثلاثة أصوات.. كان تفكيرها منطقيًا.. صوته وصوتها فمن صاحب الصوت الثالث؟.. بالطبع هو يعرف امرأة أخرى غيرها!

برغم كل شيء أعتقد أن موقفي أنا كان أكثر إحراجًا وسوءًا . فقط

لو حصل ذلك الأحمق على صوتين لأمكنني أن أتوارى وراء الصوت الثاني، لكنه لم يترك لي سوى الحقيقة العارية!

• • •

كلمات رقيقة

أعرف أن زملاء المهنة الواحدة ألد أعضاء لبعض، وهو شيء مفهوم مع السباك أو ميكانيكي السيارات، لكني وجدت هذه العبارات المذهلة التي يقولها فنانو هوليوود عن بعضهم، فحمدت الله على أنني لست فنانًا مثلهم. تعالوا نتابع بعضًا من هذه الكلمات الرقيقة:

عن الممثلة فيفيان لي: لقد جعلت الحياة جحيمًا لكل شخص بقربها، ما لم ينفذوا ما تريده في الوقت الذي تريده (ولف كاوفمان).

عن الممثل جاك ليمون: هو ليس من الممثلين الذين يقتلونك مللاً بالكلام عن التمثيل، بل هو يقتلك مللاً بالكلام عن الجولف (جورج كيوكور).

عن ممثلة أفلام السباحة إستر ويليامز: نحمة وهي مبتلة.. لا تكون كذلك وهي جافة (جو باسترناك).

عن الممثل بروس ويليز : أسوأ ممثل في العالم (روبرت ستيفنز).

عن الممثلة لوريتا يانج: أيًا ما كان الشيء الذي كانت هذه الممثلة تفتقر له، فهي ما زالت تفتقر له (بوزلي كراوثر).

عن الممثلة راكيل ويلش: هي سيليكون من ركبتيها لفوق (هيرمان مانكفيتش).

عن الممثلة مونيكا فيتي: أنا وقعت في حب كل بطلات أفلامي ما عدا مونيكا فيتي. لا أحد يقدر على حب مونيكا فيتي (ديرك بوجارد).

عن الممثل سلفستر ستالوني: يعتقد أنه لا يُقاوم وأن النساء يرتمين عند قدميه. ربما كان علي أن أفعل ذلك لأن قدميه أجمل من باقي جسده (شارون ستون).

عن الممثل فرانك سيناترا: أعتقد أنه خنزير سيء التربية (دافيد سوسكند)

عن الممثلة شارون ستون: أفضل تنظيف المراحيض على أن أعمل فيلمًا جديدًا مع شارون ستون. نساء كثيرات أصبنني بأحزان قلبية.. هي الوحيدة التي أصابتني بنوبة قلبية (المنتج بوب إيفانز).

عن الممثلة المطربة بربارا سترايساند: أكثر امرأة إدعاء في تاريخ السينما (جون بيترز).

عن الممثلة نورما شيرر: وجه لم يشوهه التفكير قط (ليليان هلمان). أحب لعب دور الساقطات، وهي بالتأكيد قد ساعدتني كثيرًا في هذا (جوان كراوفورد).

عن الممثل روبرت ردفورد: أخيرًا وجد حبه الحقيقي. من المؤسف أنه لا يستطيع أن يتزوج نفسه! (فرانك سيناترا).

عن الممثل كرستوفر بلامر: إنه ألد أعداء نفسه.. لكن هذا عدل (آلان بنيت).

عن الممثلة مورين أوهارا: تبدو كأن الزيد لا يمكن أن يذوب في فمها (إلسا لانكستر).

عن الممثل روجر مور: لو كنت في ورطة وطلبت عون روجر مور، فلسوف يتخلى عنك بألطف الطرق وأكثرها أناقة (مايكل كين).

عن الممثلة إنجريد برجمان: إنجريد المسكينة تجيد خمس لغات، ولا تعرف كيف تمثل بواحدة منها (جون جيلجود).

عن الممثل مارلون براندو: تشعر طيلة الوقت إن فمه مليء بورق التواليت المبتل (ركس ريد).

عن الممثل جون باريمور: يحتاج الأمر إلى زلزال لينهض جاك من الفراش.. فيضان كي يغتسل.. وجيش الولايات المتحدة كي يعمل (أخوه ليونل باريمور).

عن الممثل وارين بيتي: إنه مشهور من قبل أن يصير شخصًا (داستين هوفمان).

عن الممثل ستيف ماكوين: يمكنني القول بأمانة إنه أصعب ممثل عملت معه في حياتي (نورمان جويسون)

عن الممثل نلسون إدي: خنزير الخنازير (ألان دوان).

عن الممثلة فرانسيس فارمر: ألطف شيء يمكن أن أقوله عنها هو أنها لا تطاق (ويليام وايلر)

عن الممثلة جوان كراوفورد: أجمل لحظة عشتها مع جوان كراوفورد كانت عندما دفعتها من أعلى السلم في فيلم (ماذا حدث لبيبي جين) (بيتي ديفيز). لا يوجد في هوليوود كلها مبلغ من المال يقنعني بأن أمثل معها فيلمًا ثانيًا (سترلنج هايدن).

عن الممثلة بيتي ديفيز: لو وقعت في يدي، لانتزعت كل شعرة في شاربها (تالولاه بانكهيد)

عن الممثلة أوليفيا دي هافيلاند: أنا تزوجت قبلها ونلت الأوسكار قبلها، ولو مت قبلها لجنت لأني سبقتها في ذلك (أختها جوان فونتين)

عن الممثل جاري كوبر: عندما يحيطني بذراعيه أشعر بأنني حصان (كلارا باو)

عن الممثلة مارلين دتريتش: سأحطم عنقها فقط لو وجدته (نويل كوارد)

عن الممثل هاريسون فورد: هو دوبلير يلبس قبعة كبيرة (كين راسل)

عن الممثل كلارك جيبل: إنه ذلك النوع من الأشخاص الذي لو قلت له: مرحبًا يا كلارك.. كيف حالك؟. لارتج عليه الأمر ولم يجد إجابة (أفا جاردنر)

عن الممثلة جين هارلو: لقد صعدت سلم النجاح غلطة بغلطة! (ماي وست)

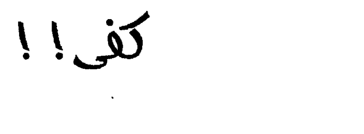
عن الممثل بول هينريد: يبدو أن فكرته عن المرح هي أن يجد قبرًا رطبًا ويرقد فيه (رتشارد ونتجتون)

عن الممثل داستين هوفمان: أستطيع أن أتخلى عن هذه الجائزة، لو كان هذا سيعيد لحياتي الأشهر التسعة التي عملتها مع داستين هوفمان (المخرج سيدني بولاك يتسلم جائزة عن فيلم توتسي)

عن الممثل بيتر سيلرز: كي يصاب بأزمة قلبية لابد أن يكون عنده قلب أولاً (المخرج بليك ادواردز)

عن الممثل كلاوس كينسكي: كل شعرة بيضاء في رأسي اسمها كينسكي (المخرج فيرنر هرتزوج)

• • •


كفى !!

هذا مسكين من مساكين الإنترنت الذين فاض بهم، فأرسل للجميع هذه الرسالة التي وصلتني هذا الأسبوع.. إنها صرخة أليمة قاسية تقول: كفى!. تعال نر معًا ما يعذبه:

- لا يوجد شيء اسمه أن تعرف من يرى البروفيل الخاص بك في الفيس بوك.
- مستحيل أن تأتي مكالمة على هاتفك الجوال تصيبك بالسرطان.
- لا أحد يمكن أن يرسل لك رصيدًا مجانيًا.
- خدمة هوتميل لن تصير مقابل نقود، ولن يطالبك أحد بأن ترسل خطابًا لعشرين شخصًا.
- الرسام الدانمركي صاحب الصور البذيئة ما زال حيًا ولم يحترق.
- بيل جيتس لم يقرر أن يوزع ماله على الناس.
- مهما ضغطت على زر الفأرة فلن ترى معجزة، وكذلك لن ترى اسم حبيبتك.
- حتى لو اشترك في هذه المجموعة مليار واحد فلن تترك إسرائيل فلسطين أو تعتذر الدانمرك.
- لو أرسلت تلك الرسالة للجميع فلن تحدث معجزة، ولو لم ترسلها فلن تزداد ذنوبك.
- لو أرسلت هذه الرسالة لمئة شخص فلن تشعر حبيبتك بك.

سوف أضيف إلى كلامه أن أرملة الزعيم الأفريقي (كوكو جامبو) لا تعرفك، ولا يمكن أن تثق بك دون الآخرين كي تطالبك أنت بالذات بأن تسحب مبلغ مليار دولار من بنك جامايكا.

أما عن اليانصيب والمسابقات التي أكسبها بلا توقف، فحدث ولا حرج.. أعتقد أنني كسبت عدة مليارات في الخمس سنوات الماضية. لو طالبت بحقي لاشتريت الكرة الأرضية عدة مرات.

صورتك ليست فاتنة لدرجة أن تنبهر بك (ناتاشا) وصديقاتها وتطلب منك الذهاب لصفحتهن. هذا لو كانت لك صورة على الإنترنت أصلاً.

لهذا أقول معه: كفى!!

في نهاية خطابه يقول صاحبنا الذي أرهقوا أعصابه:

."حينما يقرأ خمسون ألفًا هذا الكلام الفارغ، ويستغرق كل واحد منهم خمس دقائق، ثم يرسلها لخمسة أفراد.. فهذا يعني خمسين ألفًا مضروبة في خمسة في خمسة.. أي 173 يومًا.. أي نحو خمسة أشهر ونصف..ببساطة أرسل هذه الرسائل لو أردت أن تضيع من عمر الأمة خمسة أشهر. الآن أنت تعرف ما معنى هذه الرسائل ومن يرسلها.."

لا أعرف من هو كاتب هذه الرسالة لكني أشكره كثيرًا، ولا يقلل من هذا أنني تلقيت رسالته عشر مرات في يوم واحد!. لا أعتقد أنه كان ينوي أن يصير طريقة أخرى لتضييع وقت الأمة لكن هذا ما حدث فعلاً.

• • •


سيارتكم

اتصل بي قريبي الذي يعمل في الخارج، وطلب مني أن أسأل له عن السيارة (كوكي) التي رأى إعلانها في الصحف، وهو راغب في شرائها بمجرد العودة إلى الوطن.. يسألني عن مواصفاتها وهل هي أوتوماتيكية أم يدوية، وما إذا كانت سعة الموتور 1500 سم مكعب أم 1300. ونظم التقسيط الخاصة بها.. الخ.. توقعت أن يسألني عن الأشخاص الذين سيركبونها، وتاريخ الحادث الذي يمكن أن يقع لها، لكنه لم يفعل..

رفعت سماعة الهاتف وطلبت الرقم الموضح في الإعلان فجاء صوت رشيق لفتاة :

- "النصاب للسيارات.. تحت أمرك"

ابتلعت ريقي وسألتها:

- "سيارتكم (كوكي) التي رأيت صورتها في الصحف.. هل هي أوتوماتيكية أم يدوية؟، هل سعة الموتور 1500 سم مكعب أم 1300؟. ما هي نظم التقسيط الخاصة بها؟"

ظلت تنصت في اهتمام، ثم بعد ربع ساعة قالت في أدب إنها لا تعرف الإجابة.. الأستاذ (سمير) في العلاقات العامة سوف يجيب عن أسئلتك.. شكرًا. ثم راحت مقطوعة موسيقية مزعجة تعزف لفترة قبل أن يأتي صوت رجل حازم يسألني عما أريد.. قلت له إنني أرغب في السؤال عن سيارتهم (كوكي) التي رأيت صورتها في الصحف.. هل هي أوتوماتيكية أم يدوية؟، هل سعة الموتور 1500 سم مكعب أم 1300؟. ما هي نظم التقسيط الخاصة بها؟.

سألني عن المكان الذي رأيت فيه الإعلان.. سألني عن وزني وطولي وتاريخ تطعيمي ضد الحصبة والسعال الديكي. ثم قال في أسف إن الأستاذ (عاصم) في المبيعات هو الذي يملك الإجابة.

موسيقا من جديد ثم جاء صوت الأستاذ عاصم.. أهلاً بك يا سيدي.. أقول له في صبر إنني أرغب في السؤال عن سيارتهم (كوكي) التي رأيت صورتها في الصحف.. أتلو اسئلتي كلها فيصغي ربع ساعة مع أسئلة ذكية من وقت لآخر كما يفعل وكيل النيابة.. في النهاية قال لي:

. "للأسف لسنا مخولين بالإجابة عن أية أسئلة هاتفيًا.. سأكون شاكرًا لو شرفتني وشربنا القهوة معًا.. "

. "يا أخي ولماذا لا تقولون هذا منذ البداية؟.. لي ساعة ونصف أكرر فيها نفس الكلام"

ووضعت السماعة مغيظًا، ونزلت لأذهب إلى مقر شركتهم (النصاب للسيارات).. إنهم يتعاملون معه كوكر مطاريد في الجبل.. حتى توقعت أن تحاصرني الخيول وقوات الهجانة على ظهور الجمال. عندما وصلت لهم أخيرًا قابلني رجل أمن متشكك عدواني.. سألني عن سبب قدومي فقلت له: أستاذ عاصم.. عاد يسأل بلهجة من نفد صبره: هل لي أن أعرف السبب.. قلت له سيارة.. سألني عن تلك السيارة فقلت إنها السيارة كوكي.. عاد يسأل عما أريد معرفته بصدد السيارة كوكي.. هنا نفد صبري وأوشكت على الانصراف..

ناداني وقد لان قليلاً وأدخلني إلى مكتب الأستاذ عاصم..

. "اتصلت بك منذ ساعتين أسأل عن السيارة كوكي وطلبت مني المجيء.. "

نظر لي في شك كأنه يتوقع أن أقدم تفسيرات أكثر.. ثم قال:

. "عن أي شيء تسأل؟"

. " سيارتكم (كوكي) التي رأيت صورتها في الصحف.. هل هي

أوتوماتيكية أم يدوية؟، هل سعة الموتور 1500 سم مكعب أم 1300؟. ما هي نظم التقسيط الخاصة بها؟"

شرب جرعة من القهوة ثم قال:

."للأسف نحن لا نتعامل مع السيارة كوكي.. كنا ننوي ذلك ثم عدلنا عنه.. كان هذا بعد نشر الإعلان طبعًا!"

طبعًا أنت تملك خيالاً فيمكنك أن تتوقع ما شعرت به، وما قلت له، وما فعلت.. لقد حكيت قصتي عشر مرات، وهو ما يذكرني باستجوابات رجال الجستابو النازيين لأسراهم.. تكرار القصة عشر مرات يظهر الثغرات ويوقعك في الفخ..

غادرت المكان وقد توارى الجميع خوفًا مني لأنني تحولت إلى العملاق الأخضر.. الأدهى أن أحدهم لم يعرض علي شرب القهوة ولا كوب ماء كما وعدوا..

إنه ذلك الطبع البغيض لدى الناس أن يعرفوا منك كل شيء على سبيل الفضول، وهم يعرفون أنهم غير قادرين على مساعدتك.. كم من مرة سألت واحدًا عن شارع كذا، فيسألني عما أريده هناك وسبب ذهابي و.. و.. وفي النهاية ينصحني بأن أسأل شخصًا آخر!

عندما عدت للبيت دق جرس الهاتف.. كان هذا صوت صديقي يسأل من الخارج عما عرفته بصدد السيارة.. الأمر سهل يا أخي ولا يكلفك سوى مكالمة..

قلت له:

."صبرًا.. نسيت ما تريد معرفته بصدد هذه السيارة.. هل لك أن تكرر الأسئلة من فضلك؟"

• • •

تعليمات دقيقة

اعتدت أن أندهش جدًا من الناس الذين يبتاعون جهازًا جديدًا، فيتكاسلون عن مطالعة الكتيب المرفق معه. هذا الكتيب يحوي دائمًا معلومات مهمة جدًا أو إمكانيات للجهاز لم تخطر ببالك. عندما تستعمل هذه الإمكانيات يبدي الناس انبهارًا بعبقريتك، برغم أن الأمر لم يكن ليكلفهم أكثر من نصف دقيقة يطالعون فيه الكتيب مثلك. لكن الدرس الذي تعلمته بعد كل هذه السنين هو أن الناس مهما بلغت درجة ثقافتها وتعليمها تحمل هم القراءة.. يرى الرجل الكتيب جاثمًا ينتظره ككابوس فيفرك عينيه في إرهاق، ويناوله لأي واحد جواره قائلاً:

"هلا قرأت هذا لي؟.. نسيت نظارتي / وقتي لا يسمح.. الخ".

أقول إن قراءة التعليمات كانت دأبي وهوايتي، إلى أن جاء هذا العصر السعيد الذي صار فيه كل شيء صينيًا..

كل احترامي للصناعة الصينية وللشعب الصيني النشيط كالنحلة، لكني لا أحمل أي احترام للغتهم الإنجليزية أو العربية أو الكتيبات التي يطبعونها مع الأجهزة.. اللغة مفككة مليئة بالأخطاء ولا تعرف عن أي شيء تتكلم التعليمات بالضبط..

تعال معي نفتح هذه العلبة التي تحوي جهازًا إلكترونيًا معقدًا. أولاً هناك احتمال 70% ألا يكون الكتيب خاصًا بالجهاز ذاته بل بموديل آخر منه.. سوف تجد الكتيب يتكلم عن مقبض لا تجده وزر أحمر لا تراه..

احتمال آخر أن يكون هناك كتيب لكنه بالصينية.. لغة الماندارين بالذات.. لربما صار الأمر أسهل لو كان بلغة الكانتونيز . ومن الممكن ألا تجد في الكتيب أي شيء سوى صورة رديئة جدًا للجهاز. لا توجد كلمة واحدة عن تشغيله.

أما لو تجاوزت هذين الاحتماالين فهناك خطر أن تقرأ التعليمات:

."ابحث عن سلك (أ) مواز أحمر قطبية . يوصل سلك (ب) مواز أخضر . توصيل قاعدة (هـ)"

تنظر إلى الرسم سيئ الطباعة فترى عجينة سوداء اللون تدخلها عدة أسهم كتب عليها (أ) و(ب) و(هـ).. مستحيل أن تعرف أي شيء.. دعك من أن الأسلاك غير ملونة أصلاً في الجهاز الأصلي..

يواصل الأخ (هن تشو واو) إرشادك:

."ضع على قاعدة مستوية. تأكد تهوية على جزء (و). قم توصيل سلك (د) ثم استعمل مروحة (ص) تهوية. خطر احتراق وموت. ضع فيشة.. استمتع "

إذن هناك خطر احتراق وموت.. علي أن أجد المروحة (ص).. لا وجود لها.. هل نسوا أن يضعوها؟.. هل تعيد تعبئة الجهاز وتعيده للبائع؟

يقول الكتيب:

."اقرأ تعليمات في صفحة 13 مهم . خطر موت. استمتع"

تذهب لصفحة 13 لتكتشف أنه لا توجد صفحة 13.. الكتيب عشر صفحات فقط.. وفجأة تكتشف أن هناك جزءًا بالإنجليزية.. جميل جدًا.. ربما كانت إنجليزية الصينيين أفضل من عربيتهم.. إن طريقة كلام الآسيويين على غرار (الحين فيه مشكل كبير صديك) لا تصلح بالتأكيد لكتابة تعليمات استعمال الأجهزة.

لكنك تكتشف أن الإنجليزية أسوأ وأن الضمائر كارثة:

."خذ السلك (ب) وضعهم في فتحته . هم أفضل في هذا الأوضاع.

لف سلك مسمارها (مسمار ماذا؟.. مسار السلك أم هناك شيء مؤنث ظهر من دون أن تعرف؟). استمتع"

الآن جاء الليل وأنت جالس على الأرض وسط عشرات الأسلاك وقطع البلاستيك . عيناك حمراوان وقد نام البيت كله وأنت مصمم على فهم هذا اللغز. لو عجزت عن تركيب هذا الجهاز فأنت لا تصلح زوجًا ولا أبًا.. لقد صارت مسألة كرامة..

في الرابعة صباحًا يخطر لك لأول مرة أن تلقي نظرة على العلبة الخارجية البراقة للجهاز. هنا ترى على الغلاف صورة جميلة لفرن ميكروويف امتلأ باللحم المشوي. الجهاز الذي اشتريته هو مروحة كهربية. إذن هناك كتيب تعليمات خطأ في علبة خطأ لجهاز خطأ، وأنت قضيت الليل كله تحاول أن تحول فرن ميكروويف لمروحة. لا بأس.. لربما كان جهاز الميكروويف مفيدًا في البيت... هكذا تحاول البدء من جديد بمفهوم طازج للأمور. وفي الصباح تبدي زوجتك انبهارها وشكرها لك لأنك ابتعت لها مفرمة بصل ذات ثلاث سرعات.

كما قلت لك، أنا أحمل كل تقدير للصينيين، لكنهم نجحوا في شفائي من عادة قراءة تعليمات التشغيل للأبد!.

• • •

كلهم ناجحون

كفاءة لم ألق قط حتى اليوم عربيًا هاجر للخارج وفشل..

صديقي هذا لم يكن طالبًا متميزًا قط في أية لحظة من لحظات الدراسة. أذكر أننا كنا في مشرحة الكلية قبل امتحانات التشريح النهائية، فاقتحم المكان في حماسة حتى بلغ الجثة.. فأشار إلى شريان عملاق في البطن وتساءل:

- "ما اسم هذا الشريان؟"

نظرنا له في عدم فهم وحسبنا أنه يمزح، ثم قلنا له إنه الشريان الأبهر (الأورطى)، وهو شريان معروف أعتقد أن أي صبي في العاشرة يعرفه.. لولا ما في ذلك من مبالغة لاعتقدت أن اسمه مكتوب عليه. فبدت عليه الراحة وقال وهو يتنهد:

- "هذه معلومات كافية لهذا اليوم!"

ثم انصرف..!... هكذا كانت دراسته طيلة الكلية، وهي دراسة لا توحي بعبقرية زائدة أو خفية. بعد التخرج أخبرنا أنه ذاهب ليجرب حظه في فرنسا.. قابلته بعد ستة أشهر فأخبرني بشكل عارض أنه قد حصل على درجة الدكتوراه في الطب، وأنه نائب مدير مستشفى عملاق في ليون...

قلت لنفسي: إنها تلك الطاقة الغامضة الموجودة لدى العرب، والتي تتفجر عندما يعملون في الخارج. صحيح ان الحصول على الدكتوراه من فرنسا خلال ستة أشهر أمر عسير التصديق، لكن من يدري أية قدرات غامضة لدى الإنسان العربي..

بعد هذا رأيت ذلك المطرب المغمور الذي قال إنه قدم عروضه في أستراليا، ووقف الأستراليون يصفقون له ساعتين متواصلتين، وبعضهم شرع في تعلم العربية ليغني بذات اللغة الساحرة، ثم نال وسام الشرف

من ملكة استراليا.. هل هناك ملكة في أستراليا؟.. يؤكد للمذيعة أنها من دول الكومون ويلث وبالتالي هي مثل إنجلترا في كل شيء..

هناك صديق لي اختفى منذ عشرة أعوام، ثم عاد ليؤكد أنه يملك أكبر دار نشر في كندا.. وهل لديك خبرة بالنشر؟.. لا.. لكنه أقنعهم هناك أن عنده خبرة واسعة بالأمر.. هكذا عهد له الكنديون بدار نشر مفلسة فجعلها أهم دار نشر في العالم.. هل قابلت ستيفاني مايرز؟.. طبعًا... هل قابلت ستيفن كنج؟.. إنه متضايق مني لأني لم أتصل به منذ عام.. هل قابلت هارولد مكنزي؟.. طبعًا.. أقول له إنه لا يوجد كاتب باسم هارولد مكنزي؛ فيقول في استخفاف: بالطبع هناك واحد.. واضح أنك لا تتابع الأدب العالمي على الإطلاق وإنني لمندهش!

الصديق الآخر طبيب.. إنه في صراع نفسي شديد لأن مدير مايو كلينيك توسل له كي يبقى معهم وأن يصير المدير من بعده.. بلغ الأمر بالمدير الوقور أن جثا على ركبتيه وانفجر باكيًا.. يقول صاحبي في أسى:

- "تصور أن يقبل هذا الرجل العظيم أناملك كي توافق على البقاء؟.. فعلاً صراع نفسي شديد.. شديد.. شديد!"

- "ولماذا لم تبق يا أخي؟"

يقول في كبرياء:

- "أنت تقول هذا؟.. كنت أحسبك أكثر انتماء للوطن!"

كل من يذهب للخارج ينجح نجاحًا ساحقًا ويثير انبهار الغربيين.. لا أحد يفشل أبدًا.. هذه هي القاعدة التي تعلمتها..

هناك مشككون مغرضون يقولون إن معظم هذه القصص كذب..

من المستحيل التأكد منها، وهناك مثل مصري يقول: "اللي يعرف خالي يقول له" ، بمعنى أنه لا أحد يعرف الآخر في الخارج ويمكن لأي واحد أن يزعم أي شيء.. لا يمكن أن تبلغ بك درجة الحماس أن ترسل لوزارة الثقافة الكندية تسألها عن دور النشر هناك، أو ترسل لمدير مايو كلينيك تسأله عن اسم نائبه الحالي . لكني أرفض أن يبلغ بي سوء الظن هذا الحد..

لهذا أحجمت عن السفر للخارج أو العمل هناك. ماذا سيكون شأني وماذا أقول لأولادي لو فشلت؟.. وكيف أنظر للمرآة عالمًا أنني العربي الوحيد الذي لم يستطع نيل وسام الملكة، أو الفوز بمنصب مدير مايو كلينيك، أو الحصول على الدكتوراه في ستة أشهر؟

كلهم ناجحون عباقرة.. فلن أسمح لنفسي بأن أكون الفاشل الوحيد بينهم...

يقول لي ذلك الشاب المتحمس: أريد السفر للخارج حيث البلاد التي تعرف قدري..

أقول له في جزع: ولماذا تريد أن يعرف أحد قدرك؟.. لا داعي للفضائح...

لكني أعرف أنه سيسافر وبعد ثلاثة أشهر سيخبرني أنهم يريدونه رئيسًا لوزراء أسبانيا، لكن وقته لا يسمح.. هكذا القصة دائمًا...

• • •

بالغاظ عنه !

كل طفل له مصطلحاته الخاصة التي يطلقها على الأشياء.. هذا شيء تعلمته كل أم. من الواضح أن لفظتي (ماما) و(بابا) سهلتان جدًا وأقرب إلى النغمات منهما للحروف، لهذا ينطقهما كل طفل في العالم بالطريقة ذاتها..لكن الأطفال يتباينون بينهم في الكلمات المختلفة..

مثلاً كانت هناك طفلة تطلق على جدتها (طانط سهير) اسم (سولو لي).. وهو اسم غريب صيني الطابع. وبما أن تأثير الأطفال كاسح وسلطتهم هائلة، فقد وجدت السيدة الوقور المسكينة أن عليها أن تمضي باقي حياتها وقد تحولت إلى (سولو لي).. كيف حال (سولو لي)؟.. نحن ذاهبون لزيارة (سولو لي).. وقد لاحظت أن الأطفال يكتفون بحرف من الاسم (السين هنا) ثم يصنعون اسمًا آخر تمامًا، وهذا من أساليب لهجة (الكوكني) البريطانية الشهيرة..

عندما جاء ابني للحياة وتعلم الكلام كان أول ما حاول نطقه طبعًا هو (الشيكولاته).. أطلق عليها اسمًا عجيبًا هو (كاتاكا).. لكن هذا الاسم صار اسم الشيكولاته فعلاً بالنسبة لنا: أنا ذاهب لشراء (كاتاكا).. ليست عندنا (كاتاكا).. الـ (كاتاكا)باهظة الثمن.. الـ (كاتاكا) تتلف أسنانك..

أخته جاءت للوجود وكانت واضحة منذ البداية.. الشيكولاته هي (كيباليبا).. لا يوجد لها اسم آخر يا حمقى. بما للأطفال من شخصية كاسحة وقفت في السوبر ماركت أسأل البائع:

- "هل لديكم (كاتاكا) هنا؟"

فلما نظر لي في دهشة قلت بسرعة:

- "آسف.. آسف.. كنت أتحدث عن الـ (كيباليبا)..!"

ولم أفطن إلا بعد دقيقة إلى أنني استعمل مصطلحات الأطفال..

طبعًا يضعون الشيكولاته في (الأوكّا).. والأوكا هي أي أداة تعمل بالكهرباء ولها صوت عال.. ثلاجة.. غسالة.. مكنسة كهربية.. أي شيء.. لكني بالطبع لم أطلب من بائع السوبر ماركت أن يبحث في الأوكا وإلا لما كنت معكم أكتب هذه الكلمات الآن..

أما اسمي (أحمد) فقد أجمع الطفلان على أنه (أمّحة) بتشديد الميم. وقد انتشر هذا الاسم في الأسرة حتى أنني سمعت زوجتي تكلم صديقتها على الهاتف فتقول:

."طلبت من أمّحة أن يسأل في المدرسة عن كذا..."

من المصطلحات العبقرية التي ابتكرها ابني في طفولته مصطلح (إيفت).. يقوله عندما نكلفه بشيء مزعج أو ليس في طاقته أو نطلب منه ألا يفقأ عين القط.. عندما تتأمل هذا المصطلح تكتشف أنه خليط من:

1- أف... للتأفف.

2- بيه.. للتأفف أيضًا لكن بالعامية.

3- زفت.. لإبداء الاشمئزاز.

وما زال يستعمل هذا المصطلح حتى اليوم. كما أنه يستعمل مصطلحًا بليغًا آخر من ابتكاره هو (بالغاظ عنه).. معنى العبارة (قصرًا) أو (بالإكراه). لكنك لو تأملت التعبير لوجدته خليطًا من معنى الغصب ومعنى الإغاظة والاستفزاز.

كلمتني زوجتي عن وجوب تصحيح نطق الأولاد لبعض الكلمات. لن يدخل الولد الكلية وهو ما زال يقول (إيفت) فوافقت تمامًا...

كنت أتأمل مجموعة من صورهم في طفولتهم، حين كانوا

مخلوقات ندية هشة.. تلك أيام لن تعود أبدًا.. شعرت بقلبي يعتصر وقلت لها:

."لا.. لقد غيرت رأيي.. لن أتحمل أن أفقد كلمات مثل (إيفت) و(بالغاظ عنه).. دعيهم يفقدون هذه المصطلحات في زحام الحياة لكن لا تأخذيها منهم من فضلك.."

نعم.. لن أغير شيئًا، وبرغم أنهم لم يعودوا يسمونني (أمحة) فإنني سأقبل أن أمضي بقية حياتي بهذا الاسم، كما قبلت السيدة الباسلة (سولو لي) ذلك من قبل!!.

• • •

أحسبك أذكى من هنا

هو رجل يعاني حالة متقدمة من الشعور بالذكاء واللماحية. كلنا نشعر بأننا أذكياء ونكره أن نعرف العكس.. لكن هناك قدرًا صحيًا من هذا الشعور، والمصيبة هي أن نتعدى هذا الخط الأحمر فنحسب أننا عباقرة.

هو لا يقرأ سوى الكتب التي تحمل عنوان (المؤامرة الكبرى) أو أية مؤامرة مهما كان حجمها، والتي تتحدث عن منظمات الماسونية والنورانية وأحجار على رقعة الشطرنج.. الخ.. يؤمن أن كل شيء مؤامرة وأن من لا يرون هذا حمقى.

أحيانًا يكون الأمر مستفزًا جدًا.. مثلاً كنت أقوم بتشكيل بعض قطع الصلصال لأجل ابني، ولما كنت أمقت رائحة الصلصال فقد قمت بإشعال عود من البخور وغرسته في قطعة صلصال أخرى.. دخل العبقري إلى الغرفة وألقى نظرة على المشهد، ثم بدا عليه الفهم، وأغمض عينًا وفتح عينًا وغمز بعين ثالثة، ثم قال:

- "مزاج عال جدًا.. هه؟"

لما حاولت فهم ما يعنيه رفض الإفصاح. بعد محاولات عديدة قال لي في ذكاء:

- "صلصال وبخور.. محاولة للحصول على رائحة المخدرات.. هه؟. طريقة مرتجلة للتعاطي.. هه؟"

لما أخبرته أنني لم اسمع قط أن الصلصال والبخور يصنعان معًا رائحة المخدرات، قال إنه كذلك لم يسمع بهذا، وأنني قد أضفت لمعلوماته حقيقة جديدة!

في ذات مرة أخرى كنا نمشي في الشارع، وكانت هناك فتاة تقف بانتظار سيارة أجرة، وقد أراحت إحدى قدميها على حافة الإفريز.. راح

يضربني بقوة في ساعدي وقد بدت عليه علامات الذكاء التي أعرفها جيدًا.. فلما سألته عما هنالك قال:

- "هل ترى وقفة هذه الفتاة؟.. كنت أحسبك أذكى من هذا.."

نظرت للفتاة فلم أر ما يريب أو يعيب.. شرحت له في صبر إنه من العسير أن تتخذ قدما الإنسان نفس الوضع للأبد. إننا نتعب ونرهق ونغير نقاط الضغط على القدمين طيلة الوقت. لكنه أصيب بخيبة أمل من غبائي الأزلي.

- "كنت أحسبك أذكى من هذا.."

كل شيء له معنى ما.. كل كلمة مقصودة لتدل على شيء لا نعرفه..

عندما يتم تعيين رجل في منصب مرموق فلأنه صهر سيد الشماشرجي..

- "ومن هو سيد الشماشرجي؟"

- "يا أخي كنت أحسبك أوسع علمًا وفهمًا للأمور.. سيد الشماشرجي هو اليد اليمنى لمصطفى السناكحلي.."

طبعًا لن أسأل من هو مصطفى السناكحلي حتى لا يجن. أما عندما يفصل ذات الموظف أو يحال للتحقيق فالسبب معروف.. لأنه صهر سيد الشماشرجي. هذه لعبة تصفية حسابات لا تفهمها. أما المرأة التي تصل لمنصب مرموق فلأنها على علاقة مريبة بسيد الشماشرجي.

إذا أمطرت السماء فهذه علامة واضحة.. الولايات المتحدة تتلاعب بالطقس، وهناك جهاز لتغيير الجو موجود في ألاسكا محاطًا بسرية بالغة. إذا لم تمطر السماء فلأن روسيا لديها جهاز في سيبريا يغير الجو هو الآخر. ترتفع أسهم البورصة فيفسر لي في ذكاء السر.. إن

فنلندا تحاول السيطرة على تجارة الأخشاب كلها. تهبط أسهم البورصة فيؤكد لي أن هذه لعبة كي يشتري الناس المزيد من الأسهم، لأن سعر الثوم يرتفع بلا توقف.. وما علاقة سعر الثوم بأسهم البورصة؟

ينظر لي في حسرة ويحمد الله على ما منحه له من ذكاء، ويقول:

- "يا أخي كنت أحسبك أذكى من هذا.. كل طفل يعرف العلاقة بين سعر الثوم وأسهم البورصة.. حاول ربط هذا بظهور المسيخ الدجال في فنزويلا، ومثلث برمودا، وسوف تفهم كل شيء.."

نعم.. أنا بحاجة إلى دورة كاملة كي أتعلم كيف أفكر وكيف أربط بين الأشياء. لكم أحسد هؤلاء الذين فهموا كل شيء وحلوا أسرار الكون، ومن حسن حظي أنهم يسمحون لي بأن أجلس معهم وأكتب عنهم.

● ● ●

النائمون ؟ . . عملية سهلة

أشك في أن أي مخلوق على ظهر البسيطة أحب فن السينما كما أحببته في صباي. كنت أنبهر بكل شيء حتى الخطوط الناجمة عن خدوش في الفيلم، وعلامات تغيير البكرة التي تظهر في الركن العلوي الأيمن، وذرات الغبار التي تطير في الشعاع القادم من الكابينة خلفي. حتى انقطاع الفيلم وصفير المشاهدين كانت لهما إثارة خاصة. يرى البعض أنني كنت في طريقي لأن أكون مخرجًا، بينما يرى البعض أنني كنت في طريقي لأكون عامل عرض.. لا أدري بالضبط..

كنت أعتبر العامل الذي يقود المشاهدين لمقاعدهم، وحتى الكناس في السينما سحرة ممن يملكون مفاتيح هذا العالم الخيالي، فلا استبعد أنه بعد ما نرحل يجلس طرزان وجيمس بوند وفرانكنشتاين وشيرلوك هولمز مع هؤلاء.. بينما يذهب أحد عمال السينما لشراء شطائر للعشاء، ويجلس الجميع يثرثرون ويمزحون.. طبعًا يتوتر الجو نوعًا عندما يصل الكونت دراكيولا، لكنه لن يمتص دماء زملاء المهنة طبعًا!

هكذا كنت أمشي ذات يوم جوار دار السينما، شاعرًا بذلك التقديس الحالم، عندما وجدت مجموعة من كادرات السليولويد المقصوصة من أحد الأفلام، ويبدو انها قطعت فتخلص منها عامل العرض، غير عالم أن هناك مجنونًا سيقوم بجمعها ويهرع لبيته وهو يرتجف انفعالاً.

عندما تفحصت الكادرات في البيت كان بعضها من فيلم ملون أجنبي.. وحتى في سن العاشرة كنت أعرف أن هذه لقطات مضغوطة من فيلم سينما سكوب، وفيما بعد تقوم عدسة (الهيبر جونار) بفرد الصورة لتصير عريضة. كانت اللقطة التي لفتت نظري تظهر رجلاً أفريقيًا يلبس جلد نمر ويحمل رمحًا وخلفه مشاعل، وهناك ترجمة عربية تقول: "النائمون؟.. عملية سهلة.."

هكذا راح خيالي يعمل كالمجنون لتخيل ما كان قبل وبعد هذه الجملة. هذا الرجل كما هو واضح قاتل.. على الأرجح هو من قبيلة من أكلة لحوم البشر. هناك من كلفه بمهمة مهاجمة معسكر فيه نائمون.. سوف يذبحهم وهم نيام وبالتالي هي عملية سهلة. هل المعسكر الذي ينوي مهاجمته خاص بالرجل الأبيض أم بقبيلة أخرى؟.. لو كانت قبيلة أخرى فلماذا يكلفه شخص آخر بهذه المهمة؟

ارتحت لهذا الحل بضعة أيام، ورحت أتخيل الهجوم الليلي على النائمين.. لكن بعد أيام بدأ الفأر يلعب في عبي كما يقولون. الطرف الآخر طلب منه قتل النائمين أو مهاجمة النائمين أو ذبح النائمين.. إذن لماذا رفع لفظة (النائمون) بدلاً من أن ينصبها أو يجرها؟.. ما هي الظروف التي جعلت النائمين لفظة مرفوعة؟

إذن ما طُلب منه هو أن يحدث حريقًا حتى (يفر النائمون) أو أي شيء آخر يجعل (النائمون) مرفوعة.. ثم من الطرف الآخر الذي طلب منه ذلك؟. ثم خطر لي أن يكون (النائمون) اسم أحد أبطال الفيلم أو قرية.. احتمال ضعيف جدًا. وماذا لو لم يكن هو المتكلم؟.. ربما هذه العبارة تكملة لكلام الطرف الآخر، ويكون هذا الأفريقي هو الذي يصدر الأوامر..

هكذا قضيت أيامًا تعسة أحاول تخيل الملابسات التي أدت لهذه العبارة. وخطر لي عدة مرات أن أسأل كل اصدقائي عما إذا كانوا رأوا أفلامًا فيها عملية سهلة تتضمن قتل النائمين. لكن لم أجرؤ قط..

لم أشف من هذا إلا عندما وجدت كادرًا آخر من فيلم مصبوغ بالأصفر والبني.. اللون الرسمي لأفلام الكونج فو المصورة في هونج كونج. كانت الصورة تظهر رجلاً شريرًا من الطراز الصيني يكور قبضته ويلبس مثل أبطال الكونج فو، والترجمة تقول: "بالسكين؟"

لماذا يسأل؟.. ماذا سيفعله بالسكين؟.. ولماذا لا يحمل سكينًا ما دام ينوي استعماله؟. الخلاصة أن أعوام مراهقتي كانت تعسة جدًا بسبب حبي المجنون للسينما، والحلم الذي لم يتحقق قط هو أن أرى ذلك الفيلم الذي يقف فيه رجل أفريقي برمح قائلاً: النائمون؟.. عملية سهلة. أرجو لو رأيت هذا الفيلم يومًا أن تريحني وتحكي لي كل شيء!

• • •

عالمنا الصغير

يتحدد الإنسان حدود عالمه الضيق المحيط به، فيعتبر هذا هو الكون نفسه. عندما كنت في المدرسة كان المعلمون يلعبون في حياتنا بالضبط ما يلعبه رئيس الولايات المتحدة ورئيس فرنسا على الصعيد الدولي.. نفس الأهمية والخطورة. وكنا نتشاجر حول تعريف (الفولتامتر العياري) أو (قاعدة أورستد) كأننا نناقش أسرار الكون ذاتها، بينما الأمر لا يتجاوز حدوده: مجرد مدرسة ثانوية صغيرة في مدينة صغيرة..

يوبخني أبي أو تمرض أمي فيكون هذا هو (يوم التوبيخ العالمي) أو (الذكرى السنوية للمرض). كل شيء بالغ الأهمية ويؤثر في حركة أجرام السماء نفسها.

أعمل في مستشفى كبير يستقبل مئات الحالات يوميًا. كنت أمشي في طرقاته متجهًا إلى القسم الذي أعمل به عندما استوقفني ذلك الفتى.. فتى يبدو أنه ريفي من القرى المحيطة بالمدينة . اتجه نحوي في ثقة وبخطورة سألني:

."كيف حال العمدة اليوم؟"

العمدة؟.. إن المستشفى يستقبل ثلاثين عمدة على الأقل كل يوم. لابد أن هناك في هذه اللحظة عشرون عمدة في قسم الجراحة والعناية المركزة. لكن الفتى من قرية، وبالطبع أهم شخص في قريتهم هو العمدة.. بالتأكيد يحسب أن سيارات الإسعاف راحت تعوي وأضواء حمراء راحت تضيء في كل مكان من المستشفى، بينما صوت مذعور من مكبر صوت يردد:

."عمدة قرية (كفر الغلابة) هنا في المستشفى!.. يتم إلغاء الإجازات واستدعاء الأطباء!"

ولابد أننا رحنا نركض مذعورين، بينما وقف مدير المستشفى يجفف عرقه ويصرخ فينا:

ـ "عمدة قرية (كفر الغلابة).. أنتم تعرفون ما يجب عمله!.. لا أريد أخطاء!"

وهكذا يعمل المستشفى كله على قدم وساق من أجل المريض المهم. وفي كل لحظة يأتي تقرير بالحالة:

ـ " عمدة قرية (كفر الغلابة) قد ارتفعت حرارته.. عمدة قرية (كفر الغلابة) يشكو من صداع.. عمدة قرية (كفر الغلابة) يشكو من أن الوسادة غير مريحة.. "

فنهرع كي ننقذ الرجل..

لم أستطع أن أخبر الفتى أنني لا أعرف عمدة قريتهم.. لذا قلت له في تحفظ:

ـ "بخير . لكن حالته ما زالت خطرة.."

قال بصيغة آمرة مع لهجة تهديد لا شك فيها:

ـ "أرجو أن تهتموا به أكثر.. "

ثم انصرف ماشيًا بثقة كأنه صاحب المستشفى.. يكفيه أنه من ذات القرية التي صار العمدة عمدة لها..

عندما كنت طالبًا، كنت الوحيد الذي يدرس الطب في أسرتي، لهذا اكتسبت أهمية مبالغًا فيها. كان أحد أقاربي المسنين يريد خدمة ما من المستشفى لذا طلب أن يذهب معي. بدأت المشاكل على الباب عندما قال للعامل الذي يحرس البوابة:

ـ "هذا هو الدكتور (عادل).. "

قالها وهو مندهش لأن العامل لم يجث على ركبتيه ويظهر لي آيات الاحترام. لقد صار العمال وقحين على ما يبدو. كانت هناك مجموعة من الممرضات فاتجهت نحوهن أسألهن عن طبيب معين، فردت علي إحداهن في غير اكتراث ثم ابتعدت مسرعة.

قال قريبي في غضب:

."ما هذه الوقاحة؟..كان يجب أن يقفن في إجلال بانتظار أن تأمر واحدة منهن.."

طبعًا كنت أحاول في صبر أن أفهمه أنني مجرد طالب طب.. لست مدير المستشفى ولا وزير الصحة ولا مدير منظمة الصحة العالمية، ولا أحد يعرفني على الإطلاق هنا.. لكنه كان سجين عالمنا الضيق حيث أنا أهم شخص في العالم. لن أحكي لك عن خيبة أمله المتكررة.. حتى اقتنع في النهاية بأن العاملين في المستشفى وقحون جدًا ، وأنا ضعيف الشخصية عديم التأثير..

مع الوقت تدرك أنك موظف صغير في بلدة صغيرة.. وهذه البلدة توجد في بلد من العالم الثالث.. وهذا العالم الثالث يوجد في كوكب صغير اسمه الأرض.. الأرض كوكب في مجموعة شمسية صغيرة.. والمجموعة الشمسية ضمن مجرة صغيرة في الكون الفسيح...

قل لي بربك: كيف أعرف أخبار عمدة (كفر الغلابة) بعد هذا؟

• • •

روعة أن تكون....

وصلتني هذه الرسالة بالبريد الألكتروني على جزئين. الجزء الأول يذكر أسباب روعة أن تكون رجلاً، والجزء الثاني يذكر أسباب روعة أن تكون أنثى..

لماذا من الرائع أن تكون رجلاً؟

1- كل المكالمات الهاتفية تنتهي خلال 20 ثانية.

2- عندما تقوم برحلة لمدة أسبوع لن تحتاج إلا لحقيبة ثياب واحدة.

3- يمكنك أن تفتح الآنية والمرطبانات بنفسك.

4- عندما ترى رجلاً يلبس مثلك بالضبط في حفل، تجد هذا ظريفًا جدًا.

5- السفاحون ذوو الأقنعة لا يطاردونك.

6- أن يصير لك كرش لا يعني أن وجودك انتهى بالنسبة للجنس الآخر.

7- ستحتفظ باسم أسرتك للأبد.

8- عندما ينتقد أحدهم عملك فأنت لن تصاب بحالة هستيرية لأن الكل يكرهونك.

9- يمكنك مغادرة البيت بعد عشر دقائق من أخذك حمامًا.

10- لو نسى أحدهم دعوتك لمناسبة ما فلسوف يظل صديقك.

11- لن يلاحظ أحد أنك لم تتزوج برغم أنك في الخامسة والثلاثين.

12- أنت غير مضطر لتحمل الحياة مع رجل.

13- الشيكولاته مجرد تصبيرة سريعة.. ليست خطيرة جدًا.

14- إرسال الأزهار يصلح أية مشكلة.

15- لا تهتم لحظة إن لاحظ الناس أو لم يلاحظوا قصة شعرك الجديدة.

16- الأحذية الجديدة لا تجرح أو تملأ قدميك بالفقاقيع.

لماذا من الرائع أن تكون أنثى؟

1- الرجال لا يتذوقون الشيكولاته كما تتذوقها النساء.

2- نحن نشعر براحة مع النظافة أكثر من الرجل.

3- يمكننا استعمال مساحيق التجميل، في اليوم الذي نصحو فيه من النوم ونبدو مرعبين.

4- لدينا أعذار نسائية غامضة لا يفهمها المديرون، كلما اضطررنا للتغيب.

5- نحن نغادر سفينة (تيتانيك) الغارقة أولاً.

6- لا نفقد شعر رءوسنا بعد عيد ميلادنا السادس والعشرين.

7- يمكنننا لبس صندل في الصيف دون أن ننبذ اجتماعيًا.

8- فقط نحن يمكن أن نلبس الشعر المستعار ولا نبدو مضحكات.

9- البكاء يلغي مخالفات السرعة الزائدة.

10- بوسعنا تغيير فيشة المنصهر.. فقط لدينا أشياء أهم لنفعلها.

11- ما زال الرجال مصرين على دفع ثمن العشاء لنا.

12- لا ينقص من قدرنا ألا نفهم فكرة الأوفسايد أو خطة مدرب كرة القدم، لكن لو فهمنا فهذا يجعلنا فاتنات.

13- الرجال يموتون أسرع.. بينما نحن نقبض التأمين.

14- لن تجد فتيات كثيرات يقدن البلدوزر لكسب عيشهن.

15- ارتداء اللون الوردي ليس فضيحة .

• • •

تعليق في الصميم

نشر هذا الموقع على شبكة الإنترنت مقالي، الذي يطرح قضية سياسية مصيرية بالغة الأهمية.. إن رأيي المنشور غريب بل هو صادم، وأتوقع أن تنهال علي عبارات الهجوم.. لكن هذا متوقع ومطلوب كي نبدأ نقاشًا ثريًا . تقريبًا أعرف ما سيقال وأعرف جيدًا كيف سأرد.

هكذا رحت أنتظر وأفتح صفحة الموقع كل ساعة لأرى إن كان أحدهم قد علق. كانت التعليقات في ذلك الموقع تراقب أولاً قبل نشرها.. لهذا تحتاج إلى وقت.

ثم جاء التعليق المنتظر:

."أنا سيد شحاته من قرية منية عزام..

"لما عنيكي جم في عنيا.. ولاقيت الحب سيطر عليا.. حاولت أهرب لبعيد لبعيد.. لكن القلب وما يريد.. لاقيتني في جزيرة وانتي معايا.. وكل لحظة باسمع بكايا.. عشان الحب بقى كل شيء.. وعشان أنا كنت طفل بريء......الخ"

هكذا ظل الأخ يكتب أبيات الشعر الرديء حتى أتم مئة سطر، وهكذا انكمش مقالي ليصير مجرد افتتاحية للصفحة..

بعد ساعة أخرى أضيف تعليق آخر:

"لمست ايدك شعرت بحنين.. والناس بتسأل: دي مين؟.. ما رديتش عليهم لأني كتوم.. وسري بيزيد يوم بعد يوم. جايز في يوم قلبي يطق.. ويخرج سري.. ولكن.. لأ. مانيش حاقول شيء.. لما عنيكي جم في عنيا.. ولاقيت الحب سيطر عليا.. حاولت أهرب لبعيد لبعيد.. لكن القلب وما يريد.."

هكذا امتد التعليق لمدة مائتي سطر هذه المرة.. أقسم أنه يؤلف أثناء الكتابة.. يستحيل أن يكون هذا الكلام تم تأليفه من قبل..

كدت أرسل له تعليقًا يلومه لأنه اتخذ من صفحة مقالي سبيلاً للنشر.. ولأنه لا علاقة بين قصيدته الغراء وما أتكلم عنه، هنا ظهر تعليق فتاة من مصر تقول له:

."سيد شحاته.. شعرك عاطفي رائع.. هل لديك ديوان؟"

بعد قليل رد هو:

."شكرًا لذوقك الرقيق.. لا.. لهذا أنشره هنا.."

بالطبع يريد القول: "أنشره هنا في صفحة هذا الأحمق..لا يوجد مكان يسمح بهذا في الإنترنت كلها عدا هذه الصفحة". الفتاة ترد في رقة:

."إذن أرجو أن تنشر المزيد"

وهكذا تنهمر إبداعات الفتى.. لا يمكن أن تعتقد أنه سينشر كل ما كتبه ويتوقف. لا تنس أنه يؤلف وهو ينشر أي أنه لن يتوقف للأبد..

هنا يتدخل أحدهم:

."هل رأيتم ما فعله لاعبو الأهلي في المباراة السابقة؟ إنهم فريق مدلل"

بعد ساعة يظهر الرد:

."كف عن سب الأهلي أعظم فريق في الكون. أنت لا تفقه شيئًا في كرة القدم"

وبعد قليل تتحول الصفحة إلى مفاضلة بين الاهلي والزمالك، وما فعله مدرب الأهلي وقائمة أخطائه، وعدد ضربات الجزاء التي لم يحتسبها الحكم.. الخ..

لا يذكر حرف واحد عن مقالي.. لقد نسي الجميع أن هناك مقالاً في أعلى الصفحة.. لقد مات المقال.. قتله الأخ سيد شحاته. أدخل باسم مستعار (هادي المتحمس) وأكتب:

."المقال جيد لكني أختلف مع نقاط كثيرة فيه.. لماذا افترض أن المخابرات المركزية هي المسئولة عن اغتيال يوليوس قيصر؟.. أعتقد أن الكاتب يبالغ"

وأنتظر أن يعود الكلام إلى موضوع مقالي..

يرد أحدهم قائلاً:

."المقال سخيف.. لكن هذا ليس موضوعنا. نحن نتكلم عن فضيحة الأهلي في هذا الموسم"

هكذا يتحول المقال إلى موضوع رياضي ممتاز.. بينما الأخ محمد شحاته لا يكف عن إفراغ الشعر على الموقع.. أتجه للمطبخ فأبتلع قرصًا مهدئًا وأعد لنفسي كوبًا من الشاي، ثم أعود للكمبيوتر وأكتب بكل حزم تعليقي:

."أنا هادي المتحمس..الأهلي أعظم فريق عرفته مصر.. لا أحد يجادل في هذا حتى كاتب المقال نفسه!"

وكما يقول الغربيون: إن لم تستطع هزيمتهم.. انضم لهم!

• • •

معضلة جحا والحمار

القصص التي تحكي عن جحا عبقرية وتدل على ذكاء شديد.. إنه ساخر عظيم اضطر إلى التظاهر بالغباء، والنتيجة أنه يسلق الناس جميعًا بلسانه ولا أحد يغضب.

من ضمن القصص الطريفة لجحا قصته مع ابنه والحمار، وهي نموذج فريد لمحاولة الظفر برضا الجماهير كلها في نفس الوقت، وهو أمر مستحيل إذا ما تذكرنا أن الناس اختلفوا حول الأديان السماوية نفسها. جحا يغادر البيت مع ابنه فيركب الحمار، وكان هذا في يوم قائظ الحر.. يمشي ابنه خلف الحمار ويلهث.. هنا يراهم الناس فيتصايحون:

"أي أب هذا!.. يركب ويترك ابنه فريسة الشمس!".

هنا يترجل جحا ويدع ابنه يركب الحمار، ثم يمشي جوارهما بينما الحر يشويه، وبعد دقائق يمر ببعض الناس فيصيحون:

"هذا الصبي وقح عديم التربية إذ يترك أباه يمشي وهو القادر على أن يمشي بدلاً منه.. الأسوأ هو ذلك الأب المتخاذل الذي لا يقدر على إرغام ابنه على شيء!"

يقتنع جحا بهذا الكلام فيركب على ظهر الحمار مع ابنه..

بعد خطوات معدودة يسمع أناسًا يقولون:

"لقد ولت الرحمة من القلوب.. هذان الاثنان ثقيلان كالبغال، لكنهما لا يرحمان الحمار البائس ذا الكبد الرطبة.. ولأنه لا يقدر على الشكوى!"

ضاق صدر جحا من الغيظ فترجل هو وابنه ومشيا جوار الحمار..

بعد خطوات سمع من يقول:

"الحمار ليس واحدًا.. هذان الأحمقان يفضلان أن يمشيا في

الحر، ولا يركبا الحمار.. إن غباوة الناس لا تنتهي عند حدا"

لاحظت أن هذه القصة تتكرر بلا توقف.. لا يعدم أي مسئول كبير أن يجد من يتهمه بالتخاذل واللين في غير موضعه، وفي الوقت ذاته من يتهمه بالقسوة وانعدام الرحمة. وقد لاحظت في عملي أنني أصدر أمرًا حازمًا لمرءوسيّ، فأجد صديقًا يقول لي همسًا: "رفقًا بهم!.. إن رواتبهم ضئيلة والكل يعاملهم كالعبيد.. ليت الناس تتفهم ظروف بعضها!"

فجأة تحولت أنا إلى جنكيز خان، أو على أقل تقدير صرت رأسماليًا ظالمًا خاليًا من الرحمة..

هنا أعامل مرءوسيّ برفق وأتسامح مع أغلاطهم، فأجد نفس الصديق يهمس في أذني: "ومن يك حازمًا فليقسُ أحيانًا على من يرحم.. هناك مواقف لا يحسن أن يكون المرء فيها رحيمًا خلوقًا!"

بسرعة البرق تحولت إلى رجل لين مائع من طراز الذين يؤدون لانهيار الأعمال..

هكذا يوشك من يعير كلام الناس اهتمامًا أن يجن.. الناس وحش مفترس لا يرضى بشيء ولا يقنعه شيء..

ما هو الحل لمعضلة جحا؟.. خطر لي أن هناك حلولاً لم يجربها الرجل:

1- البقاء في البيت .

2- الخروج مع ابنه من دون حمار.

3- البقاء مع ابنه في البيت على أن يخرج الحمار ويقوم بكل شيء.

4- أن يحمل هو وابنه الحمار.

5- أن ينتحر هو وابنه والحمار .

6- أن يطلق الرصاص على أي شخص ينظر له ويوشك على قول تعليق ما.

كما ترى هناك ستة حلول ممتازة لم يجربها جحا.. هناك حل سابع هو أن يتجاهل الناس تمامًا ويمارس ما يروق له، لكن هذا صعب.. السجون تعج بمن قرروا أن يعملوا ما يروق لهم فحسب.. يحتاج الأمر إلى أن تكون أصم وقوي الشخصية جدًا.. وإلى أن يبلغ المرء هذه المرتبة العالية، أكتفي بأن أنصحك بألا تخرج إلا عندما تخلو الشوارع من المارة!

• • •

طبقات

قال لي في غيظ إن رئيسه في العمل يتكلم عن سيارته — سيارة المدير - التي يبلغ ثمنها سبعين ألفًا، باعتبارها سيارة متواضعة عملية. أضاف في غيظ أنه لو امتلك سيارة بنصف هذا الثمن لاعتزل العمل وتقاعد..

كنت أعرف رئيسه في العمل، وأعرف أنه ينتمي لطبقة ثرية، لهذا بدا لي كلام الرئيس معقولاً. بالنسبة لطبقته يعتبر هذا الرئيس فقيرًا.. وتعتبر هذه السيارة فضيحة متحركة، أو أداة للتسول تشبه الطبق الذي يضعه الشحاذون جوارهم لتضع فيه قرشًا. أما بالنسبة لطبقتي أنا فهذه السيارة فاخرة جدًا وغاية المراد من رب العباد.

أعرف واحدًا من الطبقة الوسطى ابتاع سيارة متواضعة عتيقة، لكنه كان يشعر بتأنيب الضمير لثرائه كلما قادها، وأصابه وسواس مرعب خوفًا من الحسد.. في النهاية باعها لأنه يخشى أن يفقد بسببها ابنًا أو بنتًا.

بالنسبة للطبقة الوسطى التي أنتمي وصاحبي لها أنا رجل مستور.. وبالنسبة للطبقات الأقل مني فأنا ثري ثراء فاحشًا، لكن لو قمت بقياسي على مقياس الطبقات الثرية فعلاً فأنا شديد الفقر..

إذن من حق رئيسه في العمل تمامًا أن يعتبر سيارته متواضعة عملية، لأنه لا يتكلم من مكاننا ولكن من مكان الذين يركبون سيارات بربع مليون ونصف مليون..

إن الطريقة الغريبة التي تترتب بها الطبقات تدهشني دومًا. مثلاً في المدرسة الثانوية كنت تجد مجموعة من الطلبة البارعين اللامعين الذين دخلوا كليات القمة كالطب والهندسة. لكن الأمور لا تنتهي هنا.. سرعان ما يعاد ترتيب هذه الطبقات داخل الكلية، فتجد طلبة الطب

مثلاً قد صاروا طبقات عقلية.. منهم العبقري ومتوسط الذكاء والغبي. يصعب على رجل الشارع أن يصدق أن هناك طالب طب غبيًا كالدجاجة، لكنها الحقيقة.. لقد صارت هناك مقاييس جديدة.. صار هناك طالب فاشل وطالب غشاش وطالب ميئوس منه..

بعد التخرج يدخل الطلاب امتحان الماجستير فيرتبون أنفسهم من جديد، ثم يدخل الذين نجحوا في الماجستير امتحان الدكتوراه.. يصعب على المرء أن يتخيل أن المتقدمين لامتحان الدكتوراه منهم الغبي الميئوس منه ومنهم العبقري.. إنها الطبقات مرة أخرى..

لهذا عندما أرى علماء الفيزياء الحاصلين على جائزة نوبل مثلاً، لا يصعب علي أن أتخيل أن بينهم عالم فيزياء غبيًا.. أو عالم طبيعة نووية بطيء الفهم بالنسبة للآخرين طبعًا، لكن هذا هو منطق الأمور.. بالطبع حدث الترتيب الإجباري لهم داخل طبقتهم ككل شيء في العالم.

يمكنك الآن أن تفهم لماذا عندما أرى ناديًا لأصحاب الملايين أو سباقًا لليخوت، أتوقع بلا شك أن أحدهم يشعر بخجل بسبب فقره، ولربما يعاني عقدة نقص مروعة تحتاج إلى الطبيب النفسي.. على كل لا أمانع أبدًا في أن أضحي وآخذ مكان هذا البائس المسكين، كما لا أمانع أن أنال جائزة نوبل في الفيزياء وأنا أقل ذكاء ممن سبقوني، فالتضحيات ملح الحياة فعلاً...

• • •

ما لا تفعلون

اتصل بي صديقي الطبيب مذعورًا ليطلب مني أن أقدم له خدمة مهمة.. هو مرتبط بحديث في المذياع على الهواء، ولا يمكنه أن يذهب للموعد لأن ابنه مريض بشدة.. هكذا طلب مني بإلحاح أن أذهب بدلاً مني..

لم أستطع الرفض فقبلت على مضض. وذهبت إلى موعد البرنامج أقدم رجلاً وأؤخر رجلاً، لتقابلني مذيعة غاضبة توشك على نسفي لأنني تأخرت..

- "لكني لست المطلوب منه أن....."

- "ش ش ش ش!.. صمتًا..!"

وأجلستني في ستوديو صوت، ووضعت أمامي مكبر الصوت بينما أغنية تدوي من مكان ما، ثم تناولت المكبر لتقول بصوت رخيم إن ضيفهم في الستوديو اليوم هو الدكتور فلان – وذكرت اسم صديقي طبعًا – الذي سيخبر المشاهدين ببعض العادات الصحية السيئة..

ثم أنها نظرت لي نظرة نارية وسألت بصوت رقيق:

- "ما رأيك في عادة شرب الماء أثناء الأكل؟"

نعم؟.. أنا أحب شرب الماء أثناء الأكل.. لكني أدركت من نظرتها أنها توجهني في اتجاه معين، كما نفعل مع الكلاب عندما نطلب منها مهاجمة شخص ما. كان جو البرنامج خفيفًا لا يسمح بالجدل العلمي، هكذا انطلقت في حماسة أنتقد عادة شرب الماء أثناء الأكل.. أسوأ شيء في العالم شرب الماء أثناء الأكل.. لا شيء أبشع من شرب الماء أثناء الأكل..

- "وماذا عن التدخين؟"

هذه المرة معها حق.. نظرت لأناملي التي اصفرت من النيكوتين وتذكرت أنني فشلت في الإقلاع عن تلك العادة اللعينة عدة مرات.. من الصعب أن تعظ بشيء وأنت لا تقدر عليه، لكني على كل حال رحت أنتقد التدخين وكل هؤلاء الذين عجزوا عن الإقلاع عنه..

."وما رأيك في الذين يشاهدون التلفزيون من موضع قريب؟"

لا خطر عليهم.. يرهقون العين لكن لم يضعف بصر أحد في التاريخ لهذا السبب، لكنها تنظر لي في تحفز؛ لذا رحت أصب جام غضبي وحقدي وكراهيتي على من يشاهدون التلفزيون من وضع قريب.. الويل لهم..

."والأطفال الذين ينزلون للماء بعد الأكل مباشرة..؟"

هؤلاء الأوغاد.. لو كان الأمر في يدي لوضعتهم على سفينة في قلب المحيط الهادي ثم أحرقتها بصاروخ نووي.. عرفت طفلاً ينزل إلى الماء بعد الغداء، وهو في قبر الآن..

لماذا لم يخبرني صديقي بأن هذا موضوع البرنامج؟.. كنت أحسبهم سيسألونني عن مرض معين. لكن يبدو أن مهمتي التصديق على كلام المذيعة، وقد قضيت ساعة كاملة أرد على اسئلة على غرار: بعض الناس يشربون المياه الغازية مع البيتزا المحشوة وبعد هذا يحلون الكلمات المتقاطعة في الصحف.. نرجو أن تقول لهم رأيك.. عندها أرد: هذا خطأ صحي فادح... الكلمات المتقاطعة بعد البيتزا المحشوة انتحار بمعنى الكلمة..

أخيرًا تهلل وجهها وقالت بصوت رخيم إذاعي جدًا:

."نشكر الدكتور (فلان) على هذه النصائح الطبية الغالية"

لما عدت لداري اتصل بي صديقي ليشكرني على ما قمت به، وكان يضحك حتى أوشك على أن يفقد وعيه..

."لم أعرف أنك نصاب إلا الآن.."

قلت له في غيظ أن يصمت..

جلست أتناول غدائي محاولاً أن أنسى البرنامج.. سأشرب بعض أكواب الماء أثناء الأكل وأنا أشاهد التلفزيون من مكان لصيق. بعد هذا سأدخن سيجارة وربما أشرب المياه الغازية وأحل الكلمات المتقاطعة في الصحف. عندما يتهمني صديقي بأنني نصاب أقول ما لا أفعل، فأنا أحب أن يكون اتهامه صحيحًا ودقيقًا.

• • •


لن أخدع بسهولة

عندما أتعامل مع واحد من الحرفيين فأنا أصمم على ألا أخدع بسهولة. لا يجب أن يفترض أنني لا أفهم عمله أو أعرف ما يقوم به، لذا تسلحت في صباي بعدد هائل من المصطلحات التي يستعملونها : الوزرة – المنجفرة – الرجلاش – المسطرين - الباتير – الرداخ.. الخ..

ورحت أستعملها بلا تحفظ في أي تعامل مع الحرفيين..

عندما يأتي الكهربائي لإصلاح شيء في بيتي.. أقدم له لفافة تبغ وأشعل لفافة، ثم أحك شعري في حنكة، وأقول له وأنا أتأمل الجدار:

."لا شك في أنك سوف تحتاج إلى (باتير).. هناك (جنش) في السقف لكن ربما لا يصلح.. أرى أنه لابد من (طبة) "

المشكلة هي أن ما يبدو على وجهه هو الاستمتاع الشديد بالموقف وليس الرعب من ثقافتي. ثم يقول وهو ينفث سحابة دخان كثيفة:

."ماذا تقصد بالطبّة سعادتك؟"

هنا أتذكر أن (الطبة) ليس مجالها هنا، بل هي من مفردات السباك وميكانيكي السيارات. وأفهم استمتاعه الشديد.. لقد أدرك أنني واحد آخر من هؤلاء، وأسعد شيء في حياته أن يتعامل مع هؤلاء ويستلبهم مالهم..

ثمة لفظة لم أفهمها ولم أعرف معناها بعد لكنها مهمة جدًا: الرجلاش.. لا أعرف ما هو لكن كل شيء يجب أن يكون له (رجلاش). وقد اعتدت مع أي حرفي أن أنصحه بأن يعطي الشيء (رجلاشًا) كافيًا، فينظر لي في صمت..

هناك من الحرفيين من يطري كل شيء... يطري ذوقك الرائع في

اختيار لون الجدران، ويطري براعتك في اختيار السيراميك، ويرى أن سيارتك في حالة ممتازة، ويرى أنك خبير في الكهرباء فعلاً.. ثم تعلمت بعد أعوام أن هذه طريقة مضمونة لتخدير الزبون.. إن الزبون يقف مسرورًا منتفخًا كالطاووس راضيًا عن ذكائه وعبقريته، بينما الحرفي يدمر كل شيء ويركب كل شيء بشكل خطأ.. ثم يضرب أتعابه في ثلاثة، وينصرف بينما الزبون لم يعد لعالم الواقع بعد..

نعم.. لا يمكن خداع الحرفيين أبدًا لأنهم يدركون كل شيء منذ اللحظة الأولى، واسعد لحظات حياتهم هي الإيقاع برجل يعتبر نفسه خبيرًا..

النقطة الأخرى التي تعلمتها مع الحرفيين، هي أنك تقضي الوقت محاولاً إقناعهم أنك لست مثقفًا مدللاً يسهل خداعه، بينما هم يقضون الوقت في إقناعك بأنهم متعلمون واسعو الثقافة..

خذ عندك هذه المحادثة بيني وبين نجار:

- "أرى أنه يجب تركيب (وزرة) لأن (الرجلاش) لا يسمح بفتح هذا الباب، وأنت لم تحضر بنطة التخويش.."

فيقول في تأمل:

- "في الغد قد يقضي ربك بشيء آخر.. ولربما تظهر في الأمور أمور. أنت تعرف ما قاله (فرانكشتاين)"

أسأله في شك:

- "فرانكنشتاين قال إنه قد تظهر في الأمور أمور؟"

- "نعم.. نظرية النوسبية.. قال فرانكشتاين: نعيب زماننا والعيب فينا.. قف للمعلم وفه التبجيلا.."

فافهم أنه يتكلم عن (ألبرت أينشتاين) صاحب نظرية النسبية، وإن كنت لم أسمع أن أينشتاين هو من قال نعيب زماننا وقف للمعلم.. لكن الرجل يدير المثقاب فيدوي الصوت عاليًا ويقول:

."حرب فيتنام قد جعلت كل واحد مسئولاً عن قراراته... هذه هي ازمة العصر والإنسان"

فأقول له:

."هذا صحيح.. لكن لا تنس الوزرة أرجوك.. "

هذه هي خلاصة تعاملي مع الحرفيين، وعلى كل حال لا فارق هنالك لأنني أخدع في جميع الحالات، لهذا وجدت أن أفضل طريقة هي أن أجلس وأترك الرجل يفعل كل شيء كما يريد، ثم أدفع ما يطلبه ، وفي النهاية أجلس لأكتب مقالاً كهذا.

• • •

مسألة أعصاب

أعتقد أن النساء أقوى أعصابًا من الرجال وأشد بأسًا. هذه حقيقة يحاول الرجال تجاهلها لكنها تطفو على السطح بلا توقف، وقد رأيت مشاجرات كثيرة يكون فيها الرجال أقرب إلى التسامح والهدوء، لكن النساء هن من يشعلن الموقف.. يقمن بالتسخين بطريقة (كيف تسمح له بأن يقول كذا؟!) أو تشتم الطرف الآخر فيشتمها.. هكذا تشتعل دماء زوجها، وهكذا تقف المرأة تراقب في استمتاع الدماء وهي تتطاير، ولا بأس بصرخة هستيرية من حين لآخر حتى لا ننسى أنها أنثى رقيقة..

أعصاب المرأة قوية في أمور عديدة، لكن الموقف الذي يجمد الدم في عروق معظم الرجال ولا يجسرون على تصوره هو عملية الشراء.. لا أعتقد أن عنترة بن شداد الذي صارع الأسود في الوديان المقفرة بيده العارية، كان يجسر على القيام بهذا النشاط الأنثوي المعتاد: الدخول إلى محل لمشاهدة كل شيء واستعراض كل شيء والسؤال عن كل شيء، بينما هو لا ينوي الشراء وجيبه خاو تمامًا.

رأيت الكثيرات يفعلن هذا العمل البطولي، بينما أعترف لك أنني اشتريت أشياء كثيرة جدًا في حياتي لمجرد أنني خجلت من البائع . يحكي أنيس منصور في كتاب (200 يوم حول العالم) أنه كان في سنغافوره يستمتع بمشاهدة التنسيق البديع في محل للخضر والفاكهة، هنا اقتنصه بائع.. ووجد أنيس نفسه يغادر المحل وهو يحمل ثيابًا داخلية باعها له الرجل دون أن يطلبها منه، ولا يعرف سبب وجودها في محل للفاكهة!

كلما تقدمت السيدة في السن ازدادت ثبات أعصاب ولم تعد تشعر بالحرج على الإطلاق. عرفت سيدة من هذا الطراز تذهب لشراء شيء.. تعرف أن ثمنه مئة جنيه... اقول لها وأنا أهرع خارجًا من باب المتجر:

."انتهى الأمر.. هيا بنا.."

فمهما خفضت السعر سيظل عاليًا..

لكنها تقف في ثبات وتنظر لي منذرة كي أصمت.. هذه معركتها وقد احتشد الأدرينالين في دمها حتى ليوشك على أن يسيل من أنفها .

تقول للبائع في ثبات:

."عشرون جنيهًا!"

أوشك على الفرار لكنها تطبق على معصمي بقوة.. انتظر ولا تكن رعديدًا.. البائع يضحك في سخرية ويقسم بقبر أمه أن ثمن هذا الشيء 85 جنيهًا.. مكسبه خمسة جنيهات لا أكثر.. لكنها تبدو مصممة، وفي النهاية تقترح ثلاثين جنيهًا..

يدور الفصال المرهق الذي يستمر عدة ساعات.. البائع يقسم بقبر أمه ألف مرة.. صحيح أن السيدة المسنة الجالسة هناك هي أمه، لكنك تقبل هذا باعتباره من آليات التسويق .

في النهاية تظفر السيدة التي أرافقها بسعر لا يوصف.. أربعون جنيهًا... لكنها غير راضية.. تشعر بحسرة لأن هذا يعني أنه كان بوسعها أن تصل لسعر أقل..

أربعون جنيهًا... هذا نصر مؤزر..

تخرج من حقيبتها عشرين جنيهًا وتؤكد:

."ليس معي سوى هذه.. يمكنك أن تعوضها في المرة القادمة.."

لكن البائع يكون قد بلغ درجة البله المغولي.. لا يعرف ما يقول ولا ما يشعر به. يريد الخلاص منها بأي ثمن لذا يوافق.. هنا تناوله المال وتطلب منه:

- "سأقترض منك خمسة جنيهات لأنك لم تترك لي نقودًا أعود بها لداري "

أمد يدي لجيبي لكنها تباغتني بنظرة مرعبة.. لا تفسد كل شيء علي.. يا لك من غبي..

يناولها البائع خمسة جنيهات وهو زائغ العينين لا يعرف ما يدور من حوله، فلو طلبت منه مفاتيح بيته أو رقم حسابه في المصرف لأعطاها بكل سرور.. الحياة بالنسبة له تنقسم إلى ما قبل لقاء هذه السيدة وهو مرحلة سعيدة، وما بعد لقائها وهو جحيم..

في النهاية نغادر المتجر حاملين الشيء الذي كان سعره مئة جنيه فصار خمسة عشر.. تقول لي في حسرة:

- "ربما لو بذلت مجهودًا أكبر لصار بعشرة جنيهات"

- "لو بذلت مجهودًا أكبر لأعطانا البائع مالاً أو أهدانا المتجر كله ليتخلص منا"

- "لا أحب أن يخدعني أحد"

ولأنها لا تحب أن يخدعها أحد فهي تحطم أعصاب الباعة وعقولهم في كل مكان. كما قلت لك تملك النساء أعصابًا أقوى من الرجال بكثير، ولا يمكن أن نحلم أن نكون مثلهن تحت أية ظروف.

• • •

رجل شديد الكفاءة

عرفته للمرة الأولى في تلك العيادة التي أعمل بها بأحد المستشفيات الخاصة. شاب مهذب أنيق يحمل حقيبة، ويقول لي:

."أرجو أن يسمح وقتك ببعض الوقت يا دكتور"

الأمر واضح . هو إذن مندوب دعاية لشركة أدوية يريد أن يقنعني بأن المريض يجب أن يدفع مئة جنيه شهريًا ليمنع ذراته من التأكسد. هم غالبًا مهذبون ولن أخسر شيئًا سوى بعض الانتباه لدقائق.

."أنت توافقني يا دكتور على أننا نحتاج إلى أقراص لا تذوب إلا في الاثني عشر، لأنها لو ذابت في المعدة لكانت مشكلة.. هذا ما توصلت له شركتنا"

فأوشك أن أقول له إنني لا أجد مشكلة في الأمر، ولم تضايقني قط من قبل.. فلتذب الأقراص حيث شاءت فهذا ليس شأني.. لكنه يواصل الكلام:

."المركب الجديد (بوكوبوكو) يتيح لك هذه المزية.."

أقول في شيء من السخرية:

."يبدو أنكم حللتم مشكلتنا فعلاً"

لكنه لا يضحك ولا يبتسم، بل يأتي بابتسامة عصبية سريعة ويواصل الكلام.. هنا أدرك أنه مبرمج كالآلة.. سوف يواصل كلامه حتى لو وقعت فوقنا قنبلة ذرية.. وأنظر في رعب للساعة لأدرك أنه يتكلم منذ عشرين دقيقة، ولا يبدو أنه سيتوقف. ثم يقذف إلى فمه بقرص من تلك الأقراص ويمتصه:

."كما تلاحظ أنا أمتص القرص بقوة.. لكن لعابي ليس قلويًا بما يكفي.. والنتيجة.. هات يدك من فضلك.."

أمد له يدي متشائمًا، لأجد القرص المبلل الذي أخرجه من فمه في يدي، وهو يقول بانتصار:

."لم يذب القرص.. هل رأيت؟.. هذا هو ما سيحدث داخل معدة المريض!"

ألقي بالقرص وأخجل من الصراخ معلنًا اشمئزازي.. أجفف كفي بمنديل ورقي، بينما يضع أمامي علبة من الدواء الجديد ويقول كأنه إعلان تلفزيوني مسجل:

."بوكوبوكو.. هو الحل السعيد لمشاكل مريضك.. بوكوبوكو بسعر ممتاز.. بوكوبوكو متاح في كل الصيدليات... سوف أتابع معك يا سيدي لمعرفة نجاحك مع بوكوبوكو"

ويحمل حقيبته ويغادر العيادة بحثًا عن فريسة أخرى. دعني أؤكد لك أن مندوبي الأدوية هؤلاء لا يجف ريقهم أبدًا ولعابهم غزير فيما يبدو.

انتهى الموقف ونسيت كل شيء عنه، فلم تمر ثلاثة أيام حتى وجدت نفس الشاب الوسيم يقتحم عيادتي وهو يضحك:

."أرجو أن يسمح وقتك ببعض الوقت يا دكتور"

ويجلس ليتكلم فأقول ضاحكًا:

."بوكوبوكو.. لقد وصفت عشرات الجرعات منه.. كل البلاد تتعاطى بوكو بوكو الآن.. إنه رااااائع!"

لكنه لا يظهر أية علامة تدل على أنه يسمع حرفًا أو أنني رأيته من قبل..

."أنت توافقني يا دكتور على أننا نحتاج إلى أقراص لا تذوب إلا في الاثني عشر، لأنها لو ذابت في المعدة......."

."لحظة.. أنت قلت لي هذا منذ ثلاثة أيام..."

لكنه يواصل الكلام.. فقط يأتي بابتسامة عصبية جانبية تدل على أنني أقول أشياء ظريفة جدًا ثم يواصل الكلام.. أمد كفي له أحاول منعه لأدرك أن القرص المبتل الملوث باللعاب قد صار هناك!

في المرة الثالثة أضاف إضافة جديدة هي أنه جاء بكوب مليء بالخل وكوب مليء بالماء ليريني كيف لا يذوب بوكو بوكو في الحمض. لكن هذا لم يمنعه من أن يضع القرص المبتل في كفي..

طلبت من الممرضة ألا تسمح له بالدخول، لكنه كان يظهر من حيث لا تدري.. وفي كل مرة يتكلم ببراءة ومنذ البداية كأنني لم أسمع حرفًا من قبل. وأذكر – أقسم بالله أن هذا حدث – أنني كدت أدهمه بسيارتي في الشارع ذات مرة، ونزلت لأعتذر فوجدته هو.. وقبل أن أقول حرفًا قال لي:

."لا عليك.. لا عليك.. المهم ان تتذكر بوكو بوكو.. أنت توافقني يا دكتور على أننا نحتاج إلى أقراص لا تذوب إلا في الاثني عشر، لأنها لو ذابت في المعدة......."

وأوصلته لمقر عمله على سبيل الاعتذار وهو لا يكف عن الكلام عن بوكو بوكو.. لحسن الحظ لم يمتص أقراصًا هذه المرة..

أوصلني هذا المندوب والبوكوبوكو اللعين إلى حدود الانهيار العصبي، وصرت اصحو مذعورًا في منتصف الليل شاعرًا بأنه يجلس قرب فراشي ويوشك على أن يضع القرص المبتل في كفي.. صرت أرتجف كلما رأيت إعلانًا عن البوكو بوكو أو درست طريقة امتصاص الأقراص

في المعدة. في النهاية استقلت من تلك العيادة حتى لا أراه. إنه مندوب ممتاز.. الحلم الذي يحلم به الرؤساء بالتأكيد.. ولو كنت رئيسًا له في العمل لمنحته وسامًا على تفانيه من أجل البوكو بوكو.. لكن لماذا أكون أنا الوحيد الذي يقع في يد هؤلاء المتحمسين المخلصين لمهنتهم؟؟

• • •

كلب وغد

أصر الأولاد على اقتناء كلب.. ولما كنت أمقت الكلاب ولا أفهمها ومعلوماتي الوحيدة عنها أنك تأخذ حقنًا عندما تعضك، فقد تركت لهم الاختيار بالكامل..

في النهاية وجدت في داري هذه العلبة الصغيرة يغفو فيها كلب صغير نظراته غير مريحة على الإطلاق. معظم الحيوانات الصغيرة فاتنة باستثناء فرس النهر وسحلية الإجوانا وهذا الكلب. لكنهم قالوا لي إنه رائع الجمال.. الملاحظة الأخرى التي استرعت انتباهي أنه جائع للأبد.. جائع كديدان القز. سألتهم عن نوع هذا الكلب فقالوا لي إنه من نوع (الهسكي). صبرًا.. أنا أعرف هذا الاسم.. أليس هو ذلك الكلب الذي يجر عربات رجال الاسكيمو في القطب الشمالي؟

قالوا لي ان نعم . هكذا هرعت إلى الموسوعة أتذكر شيئًا عن هذه الكلاب. هذه الكلاب عبارة عن ذئاب تم استئناسها منذ وقت قريب، لهذا هي شرسة الطباع جدًا ومخربة، تعوي ولا تنبح أبدًا، جائعة للأبد.. والكلب يأكل بالضبط ما يأكله رجل بالغ في اليوم. تحتاج هذه الكلاب لتنفيث طاقتها عن طريق رياضة يومية شاقة جدًا وإلا بدأت في التخريب. هذه الكلاب مبرمجة على مهاجمة الدببة القطبية عن طريق مهاجمة العنق من الخلف!

قلت للأولاد في ذعر إن هذه مصيبة كاملة.. من الأسهل أن يربوا دستة عقارب فلن تكون أخطر.

بالطبع دارت دورة الحياة ولم يبال أحد برأيي..

بدأ الكلب يكبر.. بالطبع ظهرت بعض طباعه لكنه لم يظهرها كلها. مثلاً مزق كل الشباشب الخاصة بالبيت.. لم نعد نقرأ الصحف لأنه يحولها إلى فتات في حجم عقب السجائر. هكذا يقذف البائع الجريدة عبر البوابة فلا تجد الوقت الكافي لتقع على الأرض.

الآن جاء الأستاذ خليل الذي يعلم اللغة العربية لابنتي.. هو متدين جدًا ويمقت الكلاب كالجحيم، لهذا نحرص على أن نحبس الكلب طيلة وقت الدرس. لكنك تنسى أن الكلاب تعوي.. وهكذا يفاجأ الرجل بعواء يرج البيت رجًا يأتي من خلف باب ما.. أقول له مفسرًا:

- "هذا كلب هسكي.."

- "طبعًا.. طبعًا.. هسكي... لا مشكلة"

ثم ينسى أحمق ما فيفتح الباب، ويخرج الوحش.. عرفت هذا عندما خرجت من الشقة لأجد حذاء أستاذ خليل الذي يخلعه على باب شقتنا. لقد انتهى تقريبًا وتم التهام الكعب والرباط...

كالمجرمين أهرع مغادرًا البيت، فأركب سيارتي وأبحث كالمجنون عن اسكافي عبقري يصلح لي هذا الحذاء خلال ربع ساعة هي الباقية على الدرس. أجد هذا الرجل الذي يعكف على استعادة شكل الحذاء القديم..

أضع الحذاء على الباب في اللحظة التي يخرج فيها الأستاذ خليل ليدس قدميه فيه، ويقول:

- "هسكي... طبعًا... طبعًا"

أحاول جاهدًا الخلاص من هذا الوحش، لكن الأولاد يحبونه بجنون. لو بعته أو ألقيت به في الشارع لتحطم قلبهم. أفكر في أن أقتله لكن قلبي بالطبع لا يطاوعني..

صار من نشاطي الأسبوعي أن أذهب بحذاء الأستاذ خليل للإسكافي. وأعتقد أن الرجل عديم الملاحظة فعلاً.. ألم ير أن الرباط البني صار أسود والعكس في مرات عديدة؟.. ألم يلحظ أن كعب حذائه لا يظل هو أسبوعين متتاليين؟

على كل حال لم يستفد من هذا الموضوع سوى الإسكافي العجوز الذي يبدو أنه يملك قصرًا الآن. والأستاذ خليل الذي تعلم كلمة جديدة هي (هسكي)، والكلب الوغد طبعًا الذي استمتع بالتهام نفس الحذاء عشرات المرات..

سوف يستمر كل شيء كما هو، وعلى المتضرر اللجوء للقضاء كما يقولون في محاضر الشرطة.. وهذا بالطبع إلى أن يقرر الكلب أن يقلد أجداده في مهاجمة الدببة القطبية من مؤخرة العنق، ويعتبرني دبًا قطبيًا لأنه لم ير واحدًا من قبل.. بالمناسبة.. لقد تركت حذائي هنا منذ ربع ساعة، وقد اختفى لسبب مجهول.. ألم تره من فضلك؟

• • •

نصائح للعزاب

عشت وحيدًا فترة طويلة من حياتي، وكنت أفعل لنفسي كل شيء.. صحيح ان لي أخوات متزوجات، لكن لابد للسماجة من أن تتوقف عند حد، وليس من المقبول أن تزور أختك لتأكل عندها أو تحمل لها غسيلك القذر كل يوم. هكذا تعلمت أن أعنى بنفسي قدر المستطاع وقد تعلمت بعض القواعد الذهبية التي تفيد أجيالاً من العزاب من بعدي:

1- مضرب التنس يصلح مصفاة ممتازة للمكرونة.. تعلمت هذا من مجلة أمريكية. المشكلة أنني لا أملك مضرب تنس، من ثم ابتعت واحدًا.. السؤال كما قالت لي شقيقتي هو: لماذا لم تبتع مصفاة إذن؟

2- نفس المجلة الأمريكية علمتني أن أضع الغسيل تحت قدمي وأنا آخذ الدوش، وهكذا يساهم الماء الساخن والصابون وحركة القدمين في تنظيف الغسيل. جربتها مرتين ولا أجدها طريقة ناجحة جدًا ما لم يكن الأمريكيون يستحمون بمسحوق تنظيف الغسالات الأوتوماتيك.

3- أفضل طريقة لغسل إناء الطهي هي أن تطهو فيه صنفًا آخر!... لهذا كنت آكل البطاطس لأفاجأ بقرن بامية يسبح فيها أو أجد لها مذاق الملوخية.. لا مشكلة، لكن عليك أن تتأكد أن أحدًا لن يعرف هذا ولن يأكل معك. لو تزوجت لا تخبر زوجتك بهذا أرجوك..

4- السجاجيد أوعية قمامة ممتازة.. يمكنك أن تدفن قمامة عشرة أيام تحت طرف سجادة واحدة. فقط ارفع طرف السجادة وتأكد أنك غير مراقب، ثم بخفة اكنس الغبار تحتها وغطها.

5- أترك الأضواء كما هي.. سوف تحتاج لها عندما يأتي الليل.

6- المنبه اختراع لا جدوى منه لأنك ستنهض وأنت نائم لتغلقه وتكمل النوم. يجب أن تخفيه في مكان لا تجده الشياطين ذاتها ، وبهذا تضمن أنك ستصحو من النوم وأنت تفتش عنه ساخطًا.

7- اللص الذي يجول في الصالة ليلاً لن يجد شيئًا يسرقه وسوف يرحل.. الأمر لا يستحق أن تخرج حافي القدمين في هذا الصقيع.

8- الستائر لا جدوى منها سوى أن تتحول لجبال من الغبار. انس الستائر ما دمت تعيش وحيدًا. أو استعملها كمنشفة.

9- الغبار على زجاج المكتب كتبت عليه بإصبعك أشياء مهمة جدًا.. لا تمسحه بأي ثمن.

10- الكتاب المفتوح الملقى على أرض المطبخ مهم.. ولن تجده لو وضعته في مكان آخر، كما أنك لن تجد الصفحة التي فتحته عليها.. اتركه حيث هو بالله عليك. في الواقع كل جزء من الفوضى مهم جدًا بحيث يمكن القول إن النظام هو الفوضى بعينها في حالتك.

11- يجب تغيير مفتاح الباب.. يجب تغيير مفتاح الباب. إن صديقك الذي أعطيته نسخة من المفتاح قد تطوع بعمل ستين نسخة منه، والنتيجة أنك تصحو من النوم لتجد قومًا لم ترهم في حياتك ينامون على البساط أو على أريكة الصالة أو ربما في فراشك ذاته!

12- وهذا يقودنا للنقطة الأخطر.. لن تجد صلصة ولا سمنًا لأن أصدقاء صديقك نسفوا كل شيء!

13- لن تجد ملحًا.. حقيقة قاسية أخرى لكن يجب أن تقبلها خاصة أنك لا تدرك هذا إلا في الثانية بعد منتصف الليل.

14- الثانية بعد منتصف الليل وقت مناسب جدًا كي لا تجد سجائر في البيت لو كنت مدخنًا.. أقترح أن ترمي بعض السجائر تحت الأريكة وتحت الفراش.

15- هنا سوف تتذكر نكتة (بلدينا) الذي قبل أن يسجنوه عشرين عامًا إذا أعطوه ما يكفيه من سجائر. بعد عشرين عامًا فتحوا الزنزانة فخرج وسيجارة منطفئة في فمه، وقال لهم: هل مع أحدكم عود ثقاب؟. سوف تتذكر هذه النقطة عندما تدرك في الرابعة صباحًا أنه لا يوجد أي مصدر للنار في البيت.

16- الجيران لا يصلحون لأنهم جميعًا متزوجون ويعتبرونك وغدًا غارقًا في الرذيلة. لماذا يقرع الوغد الغارق في الرذيلة بابهم في الرابعة صباحًا؟.. ليطلب عود ثقاب؟.. أضحكتني!

17- في النهاية يجب أن تقبل وتتزوج (فكيهة) ابنة خالك.. صحيح أنها قبيحة كالشيطان ولها عضلات مرعبة وشاربها أطول من شاربك، لكن تأمل وجهك بالله عليك.. تأمل نحولك وثيابك الرثة وصحتك المتدهورة.. كم من الوقت يجب أن تنتظر كي تعرف أن نصائحي هذه كلام فارغ، وأن عليك أن تجد من تعنى بك قبل أن يجدوك ميتًا خلف باب الشقة؟

18- وبعدها يمكنك أن تتظاهر بالحكمة وتكتب نصائح للعزاب لن يعملوا بها أبدًا.

• • •

مسألة إرادة

يقول الكاتب الساخر مارك توين: "الإقلاع عن التدخين أسهل شيء في العالم.. أنا شخصيًا أقلعت عن التدخين ثلاثين مرة!"

لم أفهم هذه العبارة بدقة إلا عندما قابلت (عادل)..

كان (عادل) صديقي يعنى بصحته فعلاً، لكن هذا الاهتمام لم يبلغ درجة أن يتوقف عن التدخين مرة واحدة.. كان يحلم بتلك الأيام الخوالي حينما كان بوسعك أن تكون قويًا صحيح الجسد رياضيًا ويرغم هذا لا تفارق السيجارة أصبعك. هكذا كان أبطال الأفلام القديمة يظهرون، بل أن هناك فيلمًا من الخمسينيات رأيته يتبادل فيه رجلان ضخما الجثة اللكمات بينما لفافة تبغ في فم كل منهما!. أما في الستينات ومع الوجودية وسارتر، فقد كانت السيجارة جزءًا من معالم وجه المثقف.. يبدو أن السجائر في ذلك الزمن كانت ألعاب أطفال تطلق دخانًا ولم تكن تحوي كل المواد السامة والمسرطنة التي نعرفها اليوم..

فجأة اكتشف الأطباء أن هذه اللفافات لا تحوي إلا السم، ومن يدخنها معتوه أو مريض نفسيًا يعاني رغبة جامحة في الانتحار، ثم ظهرت الكارثة الأخرى: التدخين السلبي. من حق كل واحد أن يطلق الرصاص على رأسه لكن ليس من حقه أن يقتل الآخرين.. التدخين السلبي يفعل ذلك، ومن يدخن قاتل يؤذي الناس والمجتمع. عندما يذهب المرء لأوروبا اليوم يشعر كأنه لص يختلس سيجارة عندما لا يراه أحد... يبدو أن السجائر عرفت سمعتها السيئة وقررت أن تكون شريرة كما أرادوا لها..

هكذا قرر عادل أن يقلع عن التدخين. خطته كانت بسيطة هي أن يكتفي بشرب الشيشة (النارجيلة). قلت له إن النارجيلة تطلق دخانًا

يعادل عدة سجائر معًا فلم يصدقني.. وهكذا صار كلما احتاج إلى دخان يقصد مقهى قريبًا ليدخن حجرًا أو حجرين.. ثم عرفت أنه صار يفعل ذلك سبع مرات يوميًا!

دائمًا يتحدث عادل عن أنه أقلع عن السجائر، لكنه لا يرفض أي شخص يقدم له واحدة.. وبما أنه اجتماعي جدًا فإنك تجد السيجارة في يده دائمًا. لم يحاول العد قط لكنه في ذات يوم أدرك أنه قابل عشرين شخصًا مدخنًا اليوم، وهذا معناه............. بفرض طبعًا أن الواحد لم يقدم له سوى سيجارة واحدة!

السياسة الأخرى للإقلاع هي أنه ابتاع عشر علب سجائر، وترك واحدة عند كل صديق أو في كل مكتب يمكن أن يقصده.. هكذا يزورك في دارك وبعد التحيات يطلب لفافة تبغ من علبته، يشربها حتى الثمالة ثم يودعك لأن عنده موعدًا في مكان آخر.. لا تندهش لو جاءك بعد منتصف الليل فهو لم يأت لك أنت...

كذلك يقوم عادل بقص السجائر إلى نصفين.. عندما تستبد به الرغبة يشعل نصفًا ويدخنه. النصف الآخر يلصقه بشريط لاصق إلى فلتر سجائر قديم. لهذا تجد عنده في غرفة مكتبه كومة من أنصاف السجائر تنتظر لصق الشريط لها... لكنه يقنع نفسه بأنه لم يدخن سيجارة كاملة وإنما اكتفى ببضعة انفاس تهدئ رغبته..

هكذا يوم عادل مشغول جدًا.. بين هذا المقهى وذاك حيث يدخن النارجيله، ثم يهرع لداره ليدخن نصف سيجارة، ويسرع لبيت صديق له ليأخذ سيجارة من ممتلكاته المبعثرة، وفي هذا الوقت يكون ثلاثة أو أربعة قد عرضوا عليه سيجارة فقبلها في سرور..

عندما زرته في المستشفى وقناع الأكسجين على وجهه وهو يجاهد للتنفس، توسلت له أن يقلع.. يقلع عن محاولة الإقلاع...

عندما كان يدخن علنًا كان يدخن عشرين سيجارة يوميًا، أما اليوم بعد محاولة الإقلاع فلابد أنه يقترب من ثمانين سيجارة!..

توسلت له من أجل أطفاله وأصدقائه أن يكف عن الإقلاع بطريقته ويعود كما كان!.

لكنه قال لي إن طريقته ناجعة لأنها تميل للتدريج ولا تعرض أعصابه لصدمات مفاجئة. قالها وهو يضغط قناع الأكسجين على وجهه. كان يريد الاطمئنان إلى أن هؤلاء الطغاة – الأطباء – سوف يسمحون له بالخروج بسرعة من المستشفى ليعود لجهوده الناجحة في الإقلاع..

."إنها مسألة إرادة.. وما دامت مسألة إرادة فهي لعبتي!!"

• • •

قتلة القصص

هناك أناس يتمتعون بصفة مهمة؛ هي أنهم قد خلقوا بفطرتهم قتلة للقصص، ولا شك أنك قابلت الكثيرين منهم ما لم تكن أنت واحدًا منهم. مع هؤلاء لا يمكن أبدًا أن تكمل أية قصة تبدأ فيها..

النمط الأول من هؤلاء القوم وصفته بدقة (ألف ليلة وليلة)، مع شهرزاد التي كانت تقول دائمًا : "وما هذه بأغرب من قصة الحمال والفتيات الثلاث.. الخ.."

أنت تبدأ سرد قصتك عن عودتك لدارك ليلاً، عندما هبط ذلك الطبق الطائر القادم من أورانوس أمامك.. عندما.. هنا يقاطعك ذلك الرجل قائلاً:

."ليس هذا بأغرب من قصتي أنا مع الطبق الطائر القادم من بلوتو.. حدث هذا منذ عشرة أعوام عندما...و........"

وتنتهي قصتك عند هذا الحد بلا أمل في استمرارها، وتتحول إلى مستمع مهذب بعد ما كنت محدثًا لبقًا..

هناك نمط الرجل الذي يتوقف عند التفاصيل ولا ينتظر الصورة الكلية. كنت مع واحد من هؤلاء عندما بدأت أحكي قصتي:

."إن لي أخًا يعمل موظفًا بالإسكندرية و..."

وقصتي طويلة تحكي عن جولة أخي على الشاطئ، ثم رؤيته لتلك المرأة التي تمشي فوق الأمواج وتشع لونًا أخضر، وكيف تبين أنها غرقت منذ أعوام.. الخ.. الهراء المعتاد الذي يمتعني جدًا أن أحكيه. لكن صديقي يقاطعني عند هذه النقطة. يمصمص بشفتيه ويضحك ضحكة مقدرة لروعة قصتي ثم يبدأ الكلام:

."إسكندرية!.. مدينة رائعة الجمال.. لقد أقمت فيها لفترة عام كذا و..و..."

وهكذا أدركت في ذعر أن قصتي انتهت عند هذا الحد.. تمالكت أعصابي للحظات ثم سألته في غيظ مكظوم:

."اسمع.. لو كانت قصتي تبدأ وتنتهي بأن لي أخًا موظفًا في الإسكندرية فأنا مجنون!.. ولو ظننت أن قصتي انتهت عند هذا الحد فأنت مجنون"

يقول لي العبارة الشهيرة:

."آسف.. حسبتك أنهيت كلامك.. آسف.. أكمل يا أخي.."

ويصغي في استسلام الفلاسفة وصبرهم. تواصل أنت سرد قصتك عن الليلة التي اضطر فيها أخوك للمشي على الشاطئ ليلاً و.. لكنك تدرك أن صاحبك هذا لا يصغي لحرف مما تقول.. إنه يرتب أفكار قصته وهو ينتظر بفارغ الصبر حتى تصمت أنت.. فما أن تفرغ من قصتك حتى تشهق وتنظر له في انتصار متوقعًا أن يموت من الضحك، أو يتوقف قلبه رعبًا، أو يصفق في حماسة، لكنه يبتسم ابتسامة سريعة ثم يقول:

."هه هه.. إسكندرية!.. مدينة رائعة الجمال.. لقد أقمت فيها لفترة عام كذا و.."

وتبدأ قصة أخرى تمامًا..

هذا يذكرني بنمط آخر تعرفه أنت جيدًا.. نمط مصاص الأفكار على وزن مصاص الدماء.. إنه يقول ما قلته أنت لتوك باعتباره إبداعًا خاصًا به. مثلاً تقول أنت:

."معظم الأجهزة الإلكترونية الصينية مزودة بقابس به سلك أرضي.. وهذه مشكلة"

يصغي لك بعض الوقت ثم يهز رأسه موجهًا الكلام لمن معكما:

."هل تعرفون ما خطر لي أمس؟.. إن الأجهزة الصينية مزودة

بقابس به سلك أرضي.. هذا يجعل الحياة أكثر تعقيدًا.. ورأيي هو..."
"أنا قلت هذا.."

لكنه لا يعلق ولا يبدي اهتمامًا ويواصل قصته. إنه كمن يستولي على قطعة أرض خاصة بك ويزرعها ويبني عليها أمام عينيك. لقد صارت فكرته وانتهى الأمر وعليك أن تثبت العكس..

أما أعتى قتلة القصص طرًا فهن النساء.. لقد خلقن قاتلات قصص ومن المستحيل أن تكمل أية قصة مع أية امرأة فضلاً عن أن تصغي لك أصلاً. إنها تتظاهر بالإصغاء لك وهي ترتب في ذهنها ما ستقوله بمجرد أن تفرغ أنت.. وغالبًا سيكون شيئًا لا علاقة له بكلامك. تتكلم أنت عن وضع الشرق الأوسط أو عن الاتحاد الأوروبي أو عن حادث السيارة الذي رأيته أمس، فتقول هي إن أباها كان يغلظ لها المعاملة في الماضي، أو إن زوجها ابتاع لها غسالة جديدة....

هناك نمط السيدة التي يشرق وجهها كلما اقتربت أنت من ذروة قصتك، وتشعر بأنها تموت من فرط استمتاعها بالقصة، وفجأة تسألك:
"هل ارتفعت أسعار اللحوم عندكم كما ارتفعت عندنا؟".

وهناك نمط قرأت مقالاً كاملاً عنه في مجلة أمريكية، هو نمط السيدة العصابية التي توقفك فجأة في ذروة قصتك بحركة درامية من يدها: صه!.. هل سمعت هذا الصوت؟؟ أقسم أن هناك من يتحرك في الصالة!!

نعم.. إن الاستماع فن عظيم لكن ليس له جمهور بيننا للأسف.. ولو كان له جمهور فهو بالتأكيد من الرجال فقط.

• • •

كان يمثل

بعد يومين من الزفاف جلست (هدى) في الفراش وقد أسندت ذقنها إلى ركبتيها مفكرة بعمق.. نظراتها مثبتة على (كمال) زوجها الذي صار كذلك من يومين، وكان ما زال نائمًا.

لاحظت أن ذقنه نامية مما جعله يبدو كالسفاحين المكسيكيين في أفلام رعاة البقر.. وكان يلتهم تلك الأجسام الغامضة التي يأكلها النيام دائمًا.. لاحظت كذلك أن جفنه لا ينغلق جيدًا، لهذا ظل جزء من عينيه باديًا لعينيها وهو أبيض تمامًا. صدره يعلو ويهبط كالمضخة وصوت الشخير ينبعث منه..

لاحظت كذلك إن ابهام قدمه كبير جدًا ولا يتناسق مع باقي الأصابع. بعد قليل صحا من النوم فجلس على حافة الفراش وراح يمارس عملاً فريدًا، هو أنه يهرش شعر رأسه ثم تنحدر يديه لتهرشا ذقنه محدثة ذلك الصوت المزعج (فريشت فريشت)..

نهض إلى الحمام.. لم تره يدخل الحمام قط أيام الخطبة، وقد بدا لها هذا عملاً غير رومانسي البتة. دقائق ثم سمعت صوت السيفون وانفتح الباب.. ها هو ذا يقف أمام مرآة الحمام وقد دهن ذقنه بالكريم.. يصفر وهو ينتقى موسى حلاقة مناسبًا.. يبدأ في الحلاقة وهو يرمق كل ما يدور خلف ظهره عن طريق المرآة كأنه يقود سيارته..

عندما انتهى مشى والمنشفة فوق كتفه – كأنه راهب بوذي – ليجلس على مائدة الإفطار. وضع في طبقه طنًا من الفول المدمس وثلاث بيضات ثم جذب رغيفين.. لم ينس أن يقطع طنًا من الجبن يضعه على حافة الطبق..

."هل يوجد بصل هنا؟"

هكذا جلست شاعرة بالصدمة.. هي لم تتزوج هذا الرجل.. لم يكن

هو الرجل الذي عرفته في الخطبة، والذي لم يكن يأكل أبدًا بل يكتفي بتأمل عينيها.. الأسوأ أنه يعبث باللقمة في طبق الفول قبل أن يأكلها، ويتأمل البيضة في غرام قبل أن يدسها في فمه. طعام هذا الرجل يحتاج إلى متعهد تغذية لا إلى زوجة...

تأمل كيف يهشم البصلة بقبضته وكيف يضرب البيضة في جبهته كي يقشرها.. مستحيل.. لابد أن هذا كابوس!

عندما عادت هدى إلى المكتب بعد شهر العسل، سألتها عن الزواج فهزت رأسها وابتسمت بما يعني أن الأمور سيئة جدًا..

قلت لها في قلق:

- "هل بدأ بتعاطي الماريجوانا؟.. هل يلعب القمار مع رفاق السوء كل ليلة وأرغمك على بيع مجوهراتك؟... كمْ زجاجة خمر يشرب قبل النوم؟"

هزت رأسها أنه لا شيء من هذا . لكن هناك ما هو أسوأ.. زوجها فظ وغير رومانسي بالمرة..

قلت لها في صبر:

- "المشكلة أن الأفلام العربية أفسدت تفكيرك.. رشدي أباظة يصحو من النوم بالبذلة وربطة العنق أو البيجامة المكوية..كمال الشناوي لا تتبعثر شعرة من رأسه أبدًا.. مهما حدث لعماد حمدي فهو جنتلمان لا ينسى أن يفتح باب السيارة لشادية كي تركب.. أفظع شيء يمكن أن يحدث لأنور وجدي هو أن تسقط خصلة شعر على عينه"

__ "كان كمال مثلهم وأكثر"

قلت لها في صبر:

- "ماذا تتوقعين؟.. الناس يروننا ساعة أو ساعتين في اليوم، فنحاول أن نظهر بأفضل صورة ممكنة.. لا تتوقعي من خطيبك أن يبصق ويشتم ويصفعك ويمسك بزجاجة خمر يمشي بها مترنحًا لمجرد أن يكون صريحًا.. بالطبع نحن نمثل.. نتجمل أمام الناس، ثم يصير من حقنا التام أن نتعب ونتخلى عن أقنعتنا عندما ننفرد بأنفسنا. لو قلت لي إن زوجك ينام بالبذلة أو لا يأكل أو يمشي حاملاً باقة ورد طيلة اليوم، لأصابني الذعر وطلبت منك أن تأخذيه لطبيب نفسي"

قالت في قلق:

- "تصور.. هو أسبوع واحد وقد اكتشفت الكثير.. فماذا يأتي به الغد؟"

ابتسمت في رقة وقلت:

- "هذه مسألة متروكة للحظ... قد تكتشف الزوجة أن زوجها الرقيق هو في الحقيقة سفاح هارب أو يأكل لحم البشر.. ربما هو هتلر الذي فر من الحلفاء.. ربما هو مصاص دماء أو ميت منذ عشرة أعوام.. أو ربما هو مجرد وغد آخر.. كما قلت لك: لن تعرفي هذا إلا بعد عام على الأقل.. لا أريد أن أسبب لك توترًا.. فلنترك الأمور تمضي في مسارها الطبيعي إلى أن يعلن عن حقيقته السوداء التي أخفاها طويلاً"

• • •

لو كان المتكلم مجنونًا . .

يتساءل الناس دومًا كلما سمعوا قصة لا تصدق قالها فلان أو علان: "ولماذا يكذب؟.. لا مصلحة له في الكذب.. "

وهذا افتراض ينم عن فهم ساذج للطبائع البشرية، فالمرء قد يكذب من أجل المال أو لمنفعة أكيدة وقد يكذب ليتقي شرًا أو عقابًا.. كل الناس تتوقع أن يكذب اللص، بل تندهش جدًا لو لم يفعل وتعتبره لصًا على شيء من التقصير في عمله. لكن هناك سببًا مهمًا آخر للكذب ينساه الناس أو لا يصدقونه، وهو الحاجة إلى جذب الاهتمام أو الظهور بمظهر العارف ببواطن الأمور. هذا مبرر كاف في رأيي.

كنت أحضر تلك الدورة من دورات التنمية البشرية، ذلك النشاط الذي يجب أن تقوم به حتى لا يفصلوك من العمل ويجوع أطفالك وبالتالي تتوقف تنميتهم هم. كان المحاضر يحكي لنا عن الغربيين وكم بلغوا من درجات التقدم.. هذا كلام على عيني وعلى رأسي وأصدقه تمامًا.. لكن الرجل سوف يفسد كل شيء حالاً..

ثم أنه تنحنح ونزع نظارته وقال لنا:

."سأحكي لكم قصة غريبة.. عندما ذهب الرئيس الأمريكي (ريجان) إلى اليابان كانت هناك مرافقة يابانية بارعة الحسن، تولت مصاحبته وتعريفه على كل شيء في اليابان حتى أنه أطرى كثيرًا سعة علمها وأدبها وتمكنها اللغوي"

ثم لبس نظارته من جديد وقال:

."عندما اتجه للمطار في لحظة الوداع، جاءه وزير الصناعة الياباني وقال له: هل رأيت المرافقة التي كانت معك طيلة رحلتك؟.. راقت لك؟.. إذن فاعلم إنها ليست بشرًا بل هي روبوت.. إنسان آلي صنعناه نحن وله نفس المظهر البشري وملمس البشرة...! وما كانت تفعله هو برنامج كمبيوتر دقيق كتبناه لها!"

هكذا انقطعت أنفاس ريجان العجوز وعاد للوطن ليلوم الأمريكيين على أنهم لم يبلغوا هذه الدرجة من التقدم! . سمع أصدقائي هذه القصة فراحوا يهزون رءوسهم منبهرين من براعة هؤلاء اليابانيين أما أنا فكنت موشكًا على الجنون. لو كان قائل هذا أستاذا جامعيًا فماذا يقوله سائق سيارة الأجرة أو عامل البناء أو السباك؟ دعك من السخرية المهينة من ذكائنا.. لو كان يصدق ما يقول فهو مجنون، ولو لم يصدق فهو كذاب يفترض أننا حمقى ممن يشترون الترام بسهولة.

هذا الولع بعدم الدقة والتهويل يثير غيظي دائمًا. المفترض أن هذه القصة وقعت أيام ريجان، أي في الثمانينات من القرن الماضي، بينما رأيت أمس نشرة أخبار علمية ترينا الفتح الذي حققه اليابانيون في صنع الروبوت، فرأيت دمية متخشبة كدمى المحلات ترفع ساعدها ببطء وعلى مدى خمس دقائق، ثم يدور رأسها بذات البطء، فيصفق زوار المعرض لسبب مجهول. ثمة شيء يحدثني أن هذه ليست الروبوت الذي رافق ريجان دون أن يلاحظ!

في أيام الحرب كان هناك الكثير من العباقرة الملمين ببواطن الأمور، وقد قابل الكاتب الساخر أحمد رجب أحدهم في مقهى، فراح الرجل يحكي له عن تقدم الإسرائيليين الذي بلغ درجة مروعة. السلاح السري الإسرائيلي (إم أو 44) عبارة عن مدرعة لها 44 يدًا . من هنا جاءت التسمية (ماذر أوف 44) أي أم أربعة واربعين. وهذه الأيدي تمسك بالجنود لتقذف بهم في فم المدرعة لتأكلهم!

من جديد هذا المتكلم ليس جاسوسًا إسرائيليًا وليس مكلفًا بشن حرب نفسية على المصريين. هو فقط واحد آخر مولع بأن يبدو على علم ببواطن الأمور أو أن يجذب الانتباه لنفسه.

لهذا يوجد تعبير مصري – أو مثل – يقول: "إن كان المتكلم مجنونًا فليكن المستمع عاقلاً". يجب أن يمحص المرء ما يقال له ولا يصدق كل شيء ببساطة. الآن أنا قلت كلمتي وأشعر برضا تام عن نفسي لأنني بدوت أذكى وأكثر تدقيقًا من الآخرين، وهذا يسرني جدًا بالمناسبة!.

• • •

بركة

الأمور لا تسير معي على ما يرام على ما أعتقد.. لابد أن هذه الخاصية المدعوة (البركة) ليست في صفي. لاحظت هذا للمرة الأولى عندما حسبت معدلات إنفاقي الشهرية.. لم أترك مليمًا هنا أو هناك، وقمت بعمل جدول مفصل على جهاز الكمبيوتر.. للمزيد من الدقة قمت بحساب عدة أشهر ثم حسبت المتوسط الشهري.. في النهاية عرفت أنني أنفق مبلغًا فلكيًا أصابني باكتئاب شديد. المشكلة أنني لا أجد مليمًا يمكن الاستغناء عنه أو يدخل تحت بند التبذير.. كل مليم مهم وفي موضعه بالضبط..

أمضي الكثير من الأمسيات مع صديقي هذا في كافتريا في الهواء الطلق، حيث يدخن النارجيلة كل ليلة تقريبًا.. لما حدثته عن معدلات إنفاقي الشهرية قال في ذهول:

."لابد أنك أخطأت الحساب أو أنت مخبول.. بيتي لا ينفق أكثر من ألف جنيه شهريًا!"

عدت أستوثق من الرقم.. هل أنت متأكد؟.. مع الغلاء الحالي لم يعد هذا المبلغ كافيًا لشراء علب ثقاب. وماذا عن مصاريف المدارس والدواء؟ .

عاد يكرر في ثقة وهو ينفث الدخان:

."ألف..!"

."وماذا عن النارجيلة اليومية وجلسة الكافتيريا ووقود السيارة؟"

."ألف!"

هكذا اقتنعت أن هناك أناسًا يتمتعون بخاصية البركة.. هؤلاء يمكن أن يتناولوا الغداء في مطعم (ماكسيم) بباريس والعشاء في

فندق (أستوريا) بنيويورك يوميًا وبرغم هذا لا ينفقون أكثر من بضعة جنيهات. صديقي هذا يتمتع بالبركة بشدة..

خالتي أيضًا تتمتع بخاصية البركة، فقد كنت أحكي لها كيف أن علبة مسحوق تنظيف الثياب من زنة ثلاثة كيلوجرامات لا تعيش عندي أكثر من أسبوع، فقالت في دهشة:

- "لابد أن زوجتك لا تجيد الحساب.. هذه العلبة تعيش عندي ستة أشهر..!.. وبشرط.. هو أنني أغسل يوميًا!"

ستة أشهر من الغسيل اليومي؟.. نحن لا نتحدث عن علبة مسحوق غسيل إذن بل شيء قادم من عوالم الأساطير.. مثل البئر التي لا تفرغ أبدًا..

هكذا أصابني الاكتئاب وعرفت أن كل الناس أخيار شديدو الطهر، يتعمون بالبركة وأنا الوغد الوحيد الذي كتب عليه أن ينفد ماله ويفلس..

زرت صديقي في بيته لأبكي قليلاً عنده وأصارحه بهواجسي..

أجلسني في مكتبه إلى أن ينتهي من استبدال ثيابه، هنا وجدت ورقة صغيرة على المكتب.. بدافع الفضول ألقيت عليها نظرة، فوجدت أنها حسابات الشهر.. ألفا جنيه للطعام فقط.. خمسمائة جنيه فاتورة كهرباء.. ألف جنيه لدروس الأطفال.. خمسمائة جنيه مكالمات بالمحمول.. الخ.. هذا الرجل ينفق أكثر مني ثلاث مرات على الأقل..

عندما عاد وجدني أنظر للورقة في ذهول.. قال مفسرًا:

- "نعم.. عندما سألتني لم أقم بحساب مكالمات المحمول ولا الطعام ولا فاتورة الكهرباء ولا الإيجار.. "

- "إذن ما الذي كنت تعنيه بألف جنيه بالضبط؟.. ثمن أعواد الخلة التي تنظف بها أسنانك؟"

هكذا فهمت.. الأمر لا يتعلق بالبركة، بل يتعلق بالغباء وعدم الدقة وولع الناس بالتظاهر بالحنكة والبراعة. عندما أطلب بيانات دقيقة فأنا أتوقع أن تكون دقيقة، لكن لا أحد يفكر بهذه الطريقة..

ازددت يقينًا عندما أخبرت زوجتي باستهلاك خالتي المثير للإعجاب لمسحوق الغسيل، فقالت ضاحكة:

- "لأن خالتك لم تغسل بنفسها يومًا واحدًا.. هناك من تأتي لتنجز لها هذه الأعمال!"

هكذا شعرت براحة عميقة، بعد ما شعرت بأن لعنة إغريقية غامضة تطاردني أنا بالذات. من الممتع أن تدرك أنك لست أسوأ من الآخرين، بل يصير من حقك أن تلومهم على كل هذا التبذير الذي يعيشون فيه!.

• • •

الفهرس





إنها ضحكات كئيبة.. قد تروق لك وقد لا تروق..
قد تجدها ظريفة وقد تجدها كئيبة فعلاً..
قد تجدها عميقة تتجاوز السخرية إلى ما وراءها،
وقد تجدها التفاهة ذاتها..
قد تجدها موفقة جدًا وقد تجدها فاشلة تمامًا..
المهم انني أنذرتك مسبقًا..
هذه ضحكات كئيبة..
فماذا تتوقع من ضحكات كئيبة ؟



أحم ... يق

